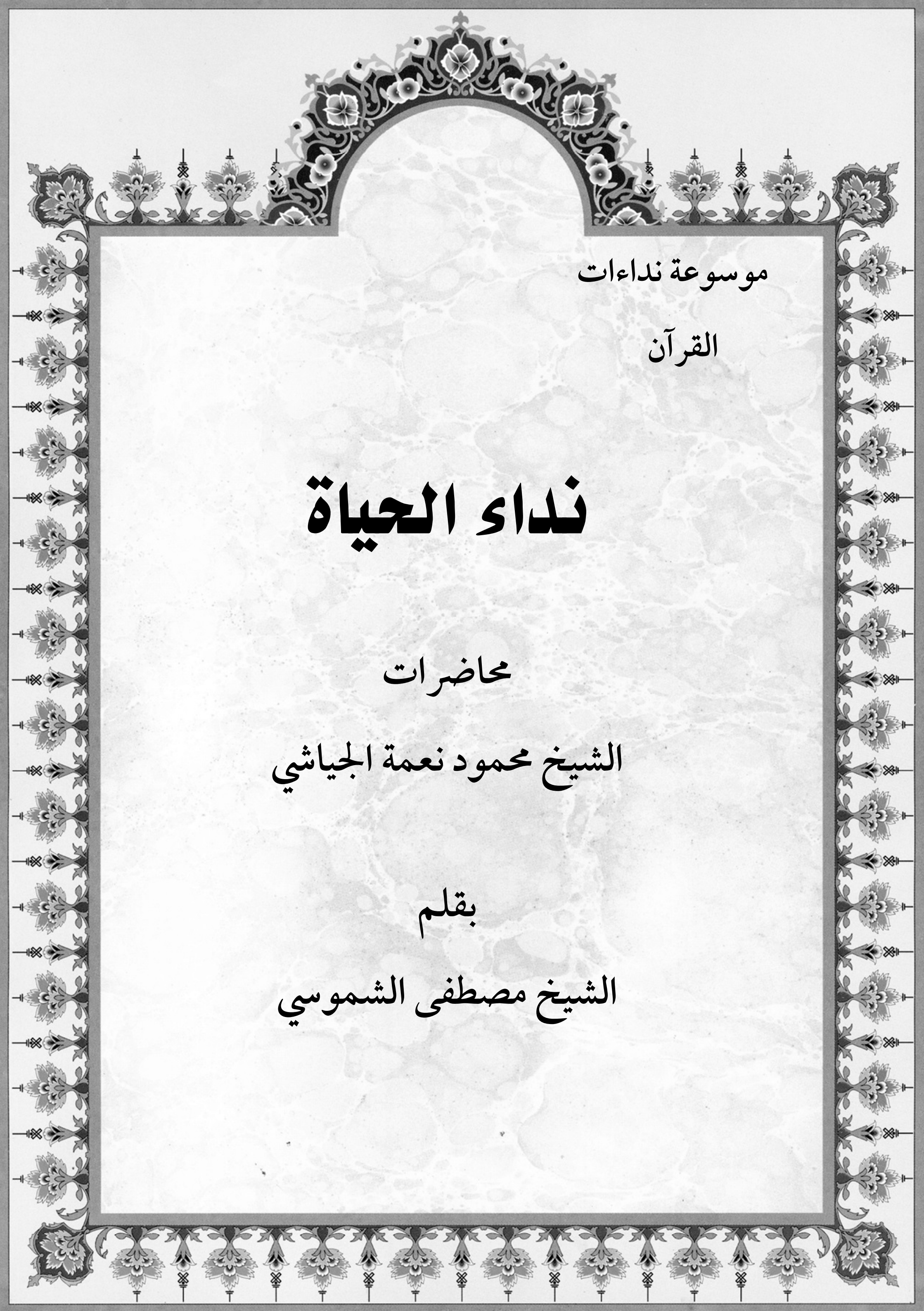


موسوعة نداءات

القرآن

نداء الحياة

محاضرات

الشيخ محمود نعمة الجياشي

بقلم

الشيخ مصطفى الشموسي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ١٣٩١ لسنة ٢٠١٩م

اسم الكتاب: نداء الحياة (محاضرات الشيخ محمود الجياشي)

بقلم: الشيخ مصطفى الشموسي

منشورات: دار تراتيل

الطبعة: الأولى ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

المطبعة: دار الكفيل

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرّفنا بنداء ((يا أيها الذين آمنوا)) ليقرع أسماع قلوبنا وينير بصائر نفوسنا تنبيهاً لنا من رقدة الغافلين ليخرجنا من ظلمات العالم الادنى الى نور العالم الاعلى وأفضل الصلاة وأتم السلام على المنادي برسالته الخاتمة التي دعانا فيها لما يحيينا عبده المنتجب ورسوله المصطفى محمد بن عبد الله وعلى آله الأئمة الهداة الميامين وعترته الطيبين الطاهرين.

وبعد..

هذا هو الجزء الرابع من الابحاث القرآنية التي ألقيناها على مجموعة من الاخوة الفضلاء المحصلين في الحوزة العلمية الشريفة أيام الاحد من كل أسبوع ، والتي كانت تدور حول موضوع نداءات القرآن ، وقد قام سماحة الاخ العزيز الشيخ الفاضل مصطفى الشموسي دامت توفيقاته بتقرير هذا البحث

الذي كان مخصصاً لـ(نداء الحياة) المستفاد من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1]، وإخراجه بهذه الصورة الماثلة بين يدي القارئ الكريم.

وإذ أبارك له جهوده المميزة شاكراً له سعيه الدؤوب في متابعة وإنجاز هذا البحث أدعو الله العلي القدير أن يوفقه للاستمرار في خدمة معارف القرآن الكريم وأن يكون جهده المبارك هذا ذخراً لنا في يوم لا ينفع فيه مال ولابنون الا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمود الجياشي

٢٠ / جمادي ٢ / ١٤٤٠

النجف الاشرف

---

١ - الأنفال: ٢٤.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على عين الإنسان و انسان العين، ومن دنا من ربّه فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى ابي القاسم المصطفى المنزّه من كلّ رين وشين وعلى أهل بيته الغرَّ الميامين سيّما ناموس الدهر وإمام العصر.. عجل الله فرجه الشريف.

وبعدُ:

فان كلام الله سبحانه وقوله تعالى نور وهدى، وما احوجنا اليوم ونحن في عصر الارتباطات والقرية الواحدة، وقد اطبق ظلام المادة وكابوسها القاتل علينا الى أن نستضيء بنور كلام الله

سبحانه وتعالى ونزيح عنا هذا الظلام الخانق، وقد اخترنا من بين كلامه سبحانه مشعلاً وضاءً وهو موضوع النداءات القرآنية الذي يعود الى المحاضرات القرآنية التي ألقاها سماحة الشيخ الأستاذ محمود الجياشي دام توفيقه على مجموعة من طلاب العلم في الحوزة العلمية في النجف الاشرف، تم نشر ثلاثة منها تحت عناوين مختلفة، وهي نداء العبادة ، و نداء التوبة، ونداء الذكر الالهي، وها هو النداء الرابع بين يدي القارئ الكريم تحت عنوان.. نداء الحياة.. والمستوحى من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1].

وفي هذا النداء يدعونا الله سبحانه وتعالى إلى الحياة الحقيقة ومن أراد أن يكون حياً بالحياة الحقيقة لابد أن يتصل بحي حقيقي وهو الله سبحانه، لان الحياة هي مصدر كل كمال وإذا

---

١ - الأنفال: ٢٤.

فقدت الحياة لا يمكن أن يحصل أي مخلوق أو موجود على كماله المطلوب، فالحياة هي اصل الكمالات والقرآن الكريم كتاب يدعو إلى الحياة الحقيقية من خلال هذا النداء الإلهي، ومن المؤكد أنني في هذه المقدمة لست بصدد الدخول في تفاصيل هذا النداء الإلهي لكي لا أفسد على القارئ الكريم متعة قراءة محتوى هذا الكتاب وما يتضمنه في طياته وبين اروقته من بحوث غاية في الدقة والجمال ولطيف الكلام ولذيذ المقال، سائلاً المولى عز وجل بحرمة القرآن الكريم ان يجعله ذخراً لنا يوم نفد على بارئنا ببضاعة مزجاة ويوم ينادي المنادي: اليوم حساب بلا عمل! ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم وتعاون في إنجاز هذا العمل بالخصوص شيخنا الأستاذ الذي لم يبخل علينا بالنصح والمتابعة ولما بذله من جهد كبير في إنجاز هذه الأبحاث، وأن يمن الباري عز اسمه عليه بالصحة والعافية ودوام التوفيق في رفد وخدمة العلم وطلابه.

في الختام أسألكم الدعاء لي ولوالدي وأدعو الله سبحانه أن يوفق جميع المؤمنين لمرضاته إنه سميع مجيب.

مصطفى الشموسي

ليلة ولادة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام

١٩ جمادي الآخرة ١٤٤٠

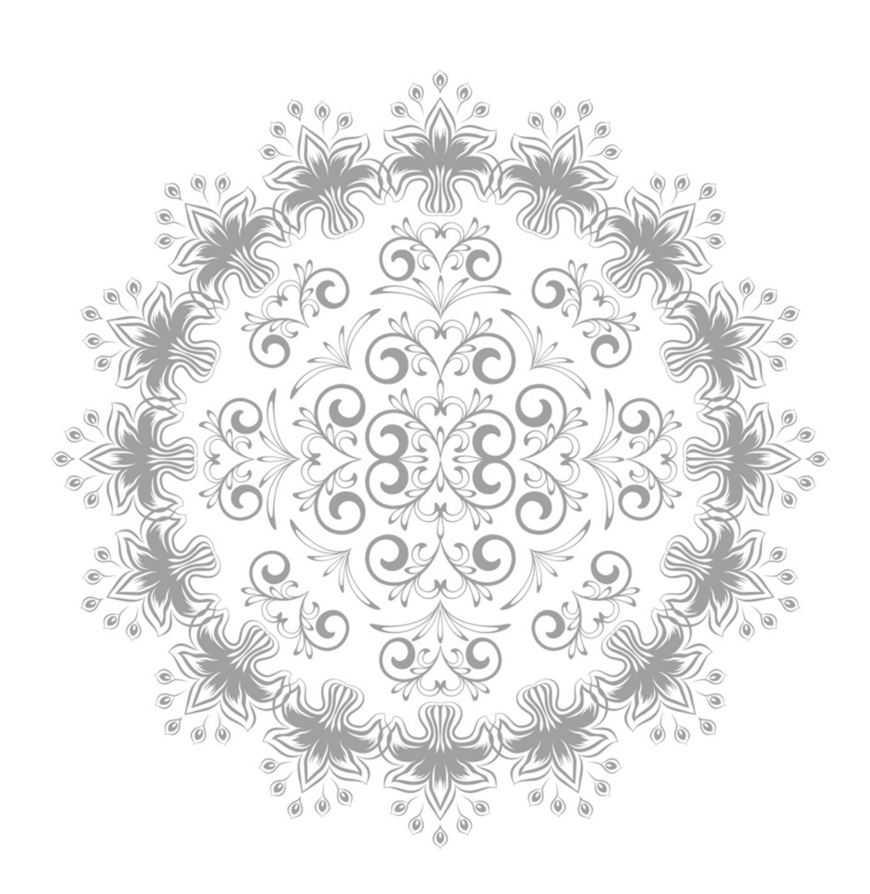
النجف الاشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾

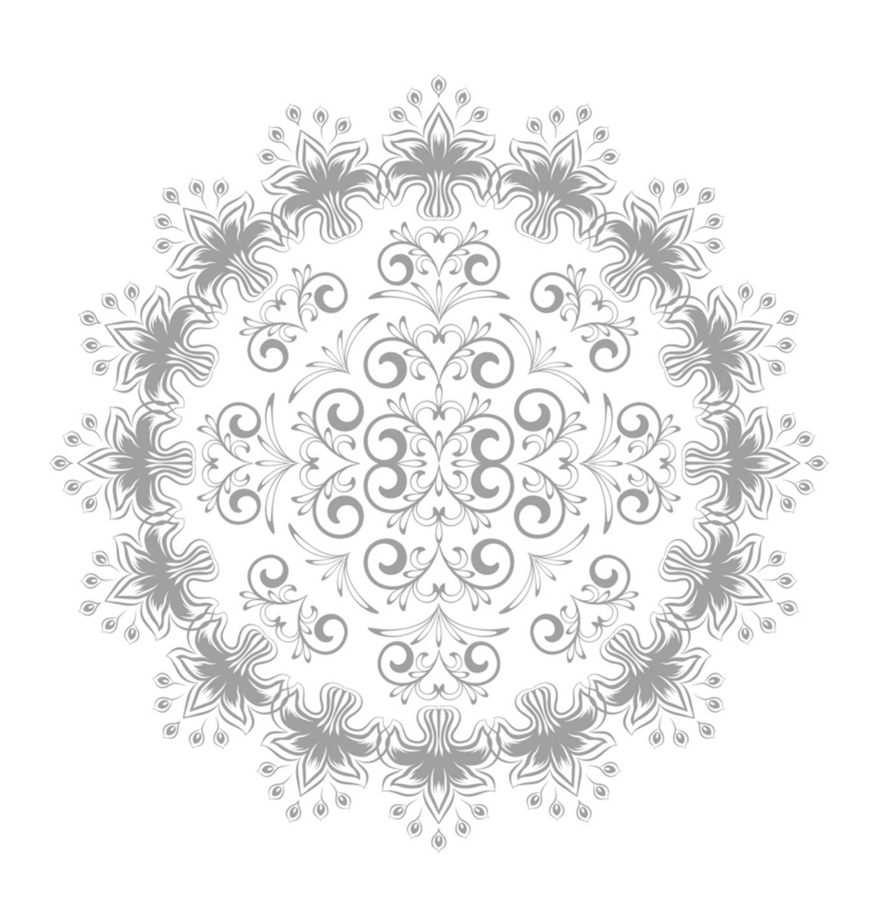
الأنفال: ٢٤

نداء الحياة



المبحث الأول

- ملاحظات دلالية
- النقطة الأولى: أهمية معرفة معنى الحياة
- النقطة الثانية: لماذا يوجّه نداء الحياة للذين آمنوا؟
- النقطة الثالثة: حيثية (الرسول) في الدعوة إلى الحياة
- النقطة الرابعة: فناء دعوة الرسول بالدعوة الإلهية





المبحث الأول

● ملاحظات دلالية

يعتبر هذا النداء من غرر النداءات القرآنية لأنه يتعرض لمسألة مهمة ومصيرية في وجود الإنسان وهي (الحياة).. ومن الواضح أيضاً أن قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] يتضمن وجوب الاستجابة لدعوة إلهية مقدمة للإنسان عن طريق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.. وأن من ميزات هذه الدعوة توقف الحياة الحقيقية للإنسان على الاستجابة لها.. فالدعوة بهذه الأهمية والخطورة.. إنها دعوة للحياة.. والمنادي هو الله عز وجل الذي يوجه نداءه للإنسان في هذا العالم ويدعوه إلى الاستجابة والالتحاق بمسيرة الحياة الحقيقية.. ومن هنا

---

١ - الأنفال: ٢٤.

أطلقنا على هذا البحث عنوان (نداء الحياة).. لأن المحور الرئيسي الذي يدور عليه البحث في هذه الآية الكريمة هو موضوع الحياة، لكن قبل الدخول في المضمون الرئيسي للآية يجدر بنا الالتفات إلى مجموعة من النقاط المرتبطة بالجهة الدلالية لهذا النداء القرآني، نتعرض لها تباعاً.

• النقطة الأولى: أهمية معرفة معنى الحياة

من الملاحظات الأساسية التي تتعلق بالبحث الدلالي للآية الكريمة هو الالتفات إلى قوله تعالى: ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ وهو المحور الأصلي للبحث في هذا النداء الإلهي، ولكننا نتعرض لذلك بشكل مختصر يفتح لنا آفاق البحث القرآني في معنى الحياة، حيث أن دعوة القرآن للحياة تمثل بحثاً طويلاً وموسعاً، ومن هنا لا بد أن نحمل فكرة وافية وواضحة عن أهمية قوله تعالى: ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ ومعرفة مدى أهمية القضية التي يطرحها القرآن

في الآية الكريمة موضع البحث.

في ضوء ذلك فإن القرآن الكريم عندما يتكلم عن معنى الحياة وأهميتها لا بد أن نعلم أن معنى الحياة يقع ضمن الرؤية الكونية الشاملة للوجود، ولا يمكن أن نتحدث عن رؤية كونية بدون أن نتحدث عن معنى الحياة.. بل إن الحياة هي المحور والأساس الذي تستند إليه الرؤية الكونية.

ومن المعلوم أيضاً أن المعنى الفلسفي للحياة هو عبارة عن سؤال فلسفي يستفهم عن حقيقة الوجود والحياة.. وله تعبيرات وصياغات مختلفة بالرغم من أن روحه ومضمونه الجوهري واحد. فيقال: ما هي الحياة؟ ما الفائدة من الحياة؟ لماذا نحن موجودون في هذا العالم؟ ما الغالية من وجودنا؟ والسؤال عن الوجود هو سؤال عن الحياة في عمقه وحقيقته، لأننا نشعر وندرك ونعمل ونتصرف استناداً إلى أننا أحياء أو موجودات ذات حياة، فالحياة هي مصدر تصرفات الإنسان المعنوية والمادية، ولذلك لا يمكن أن تصدر هذه الأمور من الإنسان الميت الفاقد

للحياة في هذا العالم.

تجدر الإشارة أيضاً إلى أن أسئلة الحياة المتقدمة تعتبر محور البحوث العلمية والفلسفية واللاهوتية على مرّ التاريخ، وقد تصدى جميع الفلاسفة والمفكرون وعلماء اللاهوت بل وعلماء الطبيعة للإجابة عن الأسئلة التي تدور على معرفة معنى الحياة وحقيقتها.

استناداً لذلك فإن قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يضعنا أمام هذا البحث وينقلنا إلى الإجابة عن ذلك السؤال الإنساني المهم. ولا شك أن إدراك معنى الحياة يلعب دوراً مهماً في الأبحاث الدينية والمعرفة العقائدية، إذ لا يمكن للإنسان الذي يعتنق ديناً سماوياً أن لا يعرف معنى الحياة، لأن الأديان السماوية عموماً تثبت وتؤكد وجود حياة أخرى سوف يصلها الإنسان بعد نهاية حياته الدنيا.. وأن تلك الحياة الأخرى هي الحياة الحقيقية.. ومن هنا يبرز الدور المهم لمعنى الحياة في منظومة المفاهيم والمعرفة الدينية.

وكذلك يلعب معنى الحياة الدور نفسه في الأبحاث الفلسفية والوجودية.. بل الأمر كذلك على مستوى العلاقات الاجتماعية وسعادة الإنسان.. فلا يمكن أن ينال الإنسان السعادة الحقيقية من دون إدراك معنى الحياة الحقيقية، ومن الوهم أن نعتقد أننا سعداء ونحن نجهل حقيقة الحياة، ولتقريب هذا المعنى فإن الطفل -مثلاً- سوف يشعر بالسعادة فيما لو قدمت له مجموعة من الألعاب.. في حين أننا لو قدمنا نفس هذه الألعاب لإنسان بالغ سوف لا يشعر بالسعادة بل سيعتبر ذلك نوعاً من الاستخفاف والإهانة، والسبب في ذلك هو أن نوع الحياة التي يدركها الإنسان البالغ وحقيقة كمالاتها يختلف عن مستوى الحياة التي يدركها الطفل.

هذا مضافاً إلى أن معنى الحياة له علاقة وثيقة بالمعاني الأخرى في مسيرة وجود الإنسان كالأخلاق، فإننا لا يمكن أن نؤسس أخلاقاً صحيحة تقود إلى كمال الإنسان من دون معرفة معنى الحياة، فعندما نقول في علم الأخلاق: أن الظلم قبيح،

والعدل حسن، وأداء الأمانة حسن، والخيانة قبيحة، وغيرها من القضايا التي تمس سلوك وعمل الإنسان، لا بد أن ندرك أولاً معنى الحياة ومن ثم نقول أن الحياة مع الظلم قبيحة، كما يقول سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام: الحياة مع الظالمين شقاء وبرم! وذلك لأنه عليه السلام مدرك لمعنى الحياة الحقيقية التي يتوقف عليها الكمال الحقيقي للإنسان.

و كذلك يتعلق معنى الحياة بحقيقة الخير والشرّ في الفلسفة، فلا معنى للقول بالخير والشرّ من دون معرفة معنى الحياة.. ويتعلق معنى الحياة أيضاً بوجود الله وحقيقة المعاد واليوم الآخر والروح، وعلى ضوء جميع ما تقدم فإن هذا النداء القرآني يضعنا أمام هذه القضية المصيرية في وجود الإنسان، فالقرآن الكريم بصدد الإجابة عن السؤال الأهم والأكبر في حياة الإنسان، ومن هنا تأتي أهمية البحث في هذا النداء الإلهي والذي أسميناه (نداء الحياة)، ومن المعلوم أن السؤال الوجودي والإنساني عن حقيقة الحياة يبقى مطروحاً مهما تقدم الفكر الإنساني في درجات الرقّي

والتقدم.. لأننا ذكرنا أن الرؤية الكونية والرؤية الدينية والرؤية الأخلاقية، والرؤية المعرفية جميعاً تترتب على الإجابة عن سؤال الحياة، وفي هذا المجال يمكن القول أن فكرة الإيمان بالله وكذلك فكرة الإلحاد لا يمكن تأسيسهما عند القائلين بهما من دون رؤية شاملة وواضحة عن معنى وحقيقة الحياة.. إذ أن الملحد يقول: إن هذه الحياة التي نعيشها الآن هي الحياة الحقيقية ولا يوجد ورائها خالق أو صانع أو حياة أخرى، وفي قبال ذلك يقول المؤمن: إن الحياة الدنيا ليست هي الحياة الحقيقية للإنسان بل هي لعب ولهو وغرور حسب تعبير القرآن وإنما الحياة الحقيقية هي حياة أخرى ترتبط بالله سبحانه وتعالى كونه مصدر الكمال المطلق.

ومن هنا فإن الذي يستطيع الإجابة عن سؤال الحياة سوف يكسب الاطمئنان والسعادة النفسية الحقيقية وينال الاستقرار الروحي والوجودي.

في هذا المجال يقرر القرآن كلمته الفصل ويجيب عن هذا

السؤال بطريقة رائعة تضع الإنسان في عالم آخر بمجرد أن يستمع لهذا النداء الإلهي، حيث يقول: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾!

عجباً! وهل نحن أموات لكي يدعونا القرآن للحياة؟! إن هذه الآية الكريمة تفترض سلفاً أن الإنسان بدون الاستجابة للنداء الإلهي يكون ميتاً.. وإذا أراد أن يحصل على الحياة فليس هناك طريق إلا من خلال الاستجابة لله سبحانه.. وبهذا الأسلوب يتجاوز القرآن النقاش في معنى حياتنا الدنيا ويفترضنا أمواتاً ثم يوجه لنا النداء بالانتقال إلى الحياة الحقيقية، وبناء على ذلك ينبثق السؤال عن حقيقة هذه النشأة التي نسميها الحياة الدنيا؟ وكأن القرآن من خلال هذا النداء يريد أن يحطم هالة الوهم التي تحيط بنا في نشأة الدنيا، وهي أننا نحسب أننا أحياء بحياة حقيقية كاملة.. وينقلنا إلى تساؤل أهم وأعمق في نفوسنا وهو السؤال عن معنى الحياة الحقيقية التي يدعونا الله سبحانه إليها، وما هو فرقها عن هذه الحياة التي وصفها القرآن بأنها لعب ولهو وزينة وغرور؟

• النقطة الثانية: لماذا يوجّه نداء الحياة للذين آمنوا ؟

من الواضح أن هذا الخطاب موجه للذين آمنوا حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ .. ﴾ وعلى ضوء ذلك ينبثق السؤال التالي: إن الذين آمنوا قد استجابوا لله في أصل إيمانهم، فما معنى أن يوجه لهم الخطاب الإلهي مرّة أخرى وبهذه الصياغة والمضمون الذي يعبّر عن قاعدة عامة أو قانون قرآني شامل؟

في هذا المجال يمكن أن نطرح جوابين للتساؤل المذكور، هما:

الجواب الأول: لا شك أن المؤمنين قد استجابوا لله سبحانه في أصل إيمانهم، فقد آمنوا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له وآمنوا بالنبوة والرسالة، فهذه استجابة صحيحة، لكن يمكن أن يوجه لهم نداء أو دعوة أخرى للاستجابة إلى فروع الإيمان، بمعنى أن المؤمن لا يستجيب في أصل الإيمان

فقط، بل توجه له دعوة ثانية في فروع الإيمان ولا بد أن يستجيب لها لكي يلتحق بركب الحياة الحقيقية التي يدعو لها الله سبحانه.. ونقصد من فروع الإيمان الأحكام الشرعية التي تمثل جانب العمل والسلوك في حياة الإنسان سواء الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات أو ما يخص الجانب الأخلاقي.. فيكون محصل الآية الكريمة: استجيبوا لله وللرسول اعتقاداً وعملاً وأخلاقاً.. وهذا هو معنى الحياة الحقيقية التي يدعو إليها القرآن والتي لا بد أن تشمل الأركان الثلاثة المذكورة من الاعتقاد الصحيح والإلتزام بالشرع والتخلق بأخلاق الله. وعليه فيكون توجيه النداء للذين آمنوا صحيحاً ولا إشكال فيه.

الجواب الثاني: إننا نعلم حسب أصول العقيدة الحقّة أن الواجب سبحانه لا متناهي وبالتالي فإن درجات القرب منه سبحانه لا متناهية، وعليه فكلّما تقرب المؤمن إلى الله سبحانه بدرجة وبتعبير آخر استجاب لله بدرجة من الدرجات فإنه يوجه له الخطاب والنداء بالوصول إلى الدرجة الأعلى والأكمل، ولا

يخفى أن كل درجة من درجات القرب من الله تعتبر حياة حقيقية، لكنها مختلفة من جهة الكمال الوجودي، فكلّما وصل الإنسان إلى درجة ما في مسيرة تكامله نحو الله عز وجل سوف يوجّه له النداء من الدرجة الأعلى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ...﴾ وعليه سوف تبقى الدعوة الإلهية موجهة إلى المؤمن مهما تقرب إلى الله سبحانه، ويكون المؤمن حينئذٍ في صراط الاستجابة الدائم لله سبحانه، ولا يمكن له أن يكتفي ويقول: إنني وصلت للقرب الإلهي الكامل ولا أحتاج بعد ذلك إلى دعوة إلهية للقرب!

نعم هناك حالة واحدة تنتفي معها الدعوة الإلهية وهي وصول الإنسان المؤمن إلى درجة الفناء التام بالله سبحانه والبقاء به جلّ وعلا.. ولا شك أن العبارات قاصرة عن التعبير والاحاطة بهذه المرتبة، وذلك لانتفاء (إنيّة) الإنسان حينئذٍ ولا يمكن أن توجه له الدعوة الإلهية بسبب انتفاء الاثنينية والتعدد.. لكن من المعلوم أن الحصول على هذه المرتبة نادر جداً وأن أغلب

المؤمنين مستجيبون لله في درجات التكامل الأخرى ولذلك يبقى النداء موجهاً إليهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾.

• النقطة الثالثة: حيثية (الرسول) في الدعوة إلى الحياة

من الواضح أن هذا النداء الإلهي توجه إلى الذين آمنوا من خلال لفظ (الرسول) حيث قال: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ وهذا المعنى يضعنا أمام حقيقة قرآنية أخرى وهي ما نعبر عنه بـ(حيثية الرسالة الإلهية)، أي أن القرآن عندما يذكر ألفاظاً كالرسول، والمرسل، والرسالة، والمرسلين، فإن لذلك دخلاً مباشراً بالمضمون الذي يكون القرآن بصدد بيانه، ففي الآية الكريمة موضع البحث لم يقل: استجيبوا لله وللنبي.. وإنما نصّ على حيثية الرسالة دون حيثية النبوة، إذ أن القرآن كثيراً ما يعبّر بلفظ (النبي) وكذلك يعبّر بلفظ (الرسول)،

ولا شك بأن لهذا الاختلاف في التعبير ثمرات قرآنية مهمة في المعرفة الدينية خصوصاً في معرفة لوازم مقامي النبوة والرسالة.

ولو تتبعنا بعض الآيات القرآنية الواردة بلفظ (الرسول) لوجدنا أن القرآن يرتب نتائج مهمة في الرؤية العقائدية والإيمانية على حيثية الرسالة.

كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2].

أي إن إخراج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور يتحقق من خلال حيثية الرسالة في وجود الرسول المبارك، ونعني بها حيثية أو جهة الرسالة التكوينية في وجوده المبارك، لأنه مرسل من الله.

---

١ - المائدة: ٦٧.

٢- الطلاق: ١١.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

فمن جهة أنه رسول يتلو آيات الله سوف تتحقق التزكية والتربية وتعليم الكتاب والحكمة، فحيثية الرسالة هي التي تزكي وتعلّم وتربّي وتطهّر الآخرين.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ .. ﴾[2].

نجد أن القرآن يؤكد أن حيثية الرسالة هي التي تجعل الناس موحدين وتأمرهم بعبادة الله سبحانه. إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي جاءت بلفظ (الرسول) والتي تؤكد أهمية حيثية الرسالة في هذا النداء القرآني، أي إن الرسول الأكرم ﷺ

١- الجمعة: ٢.

٢- المؤمنون: ٣٢.

يدعونا لما يحيينا من خلال هذه الحيثية في وجوده المبارك. وسنزيد ذلك توضيحاً من خلال الملاحظة الرابعة الآتية.

● النقطة الرابعة: فناء دعوة الرسول بالدعوة الإلهية

يمكن القول أن هذه الملاحظة تنبثق منهجياً من الملاحظة السابقة، إذ بناءً على ما ذكرناه هناك فإن الرسول من حيثية رسالته الإلهية هو الذي يزكي ويعلّم ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ويأمرهم بعبادة الله واجتناب الطاغوت.

على ضوء ذلك ينفتح البحث في النقطة الرابعة، وحاصله:

أن الضمير في قوله تعالى: ﴿**دَعَاكُمْ**﴾ جاء مفرداً، أي أن فاعل (دعا) هو شخص واحد، مع العلم أن الآية الكريمة تتكلم عن الله والرسول، حيث قالت: ﴿**ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ** ..﴾ فكان المفروض أن يأتي الفعل (دعا) بصيغة المثنى، أي (دَعَواكم)، بمعنى أن الله والرسول كلاهما داعيان وتتحقق

الاستجابة لهما معاً، وتعتبر هذه الحالة من الحالات النادرة نحوياً ولغوياً، فكيف يتقدم فاعلان ثم يعود الفعل بعدهما بضمير المفرد؟ فهل ضمير (دعاكم) راجع إلى الله سبحانه أم راجع إلى الرسول؟

يذهب مشهور المفسرين في هذه النقطة إلى أن ضمير (دعاكم) يرجع إلى الرسول الأكرم ﷺ، لأن لفظ (الرسول) هو الأقرب نحوياً إلى الفعل (دعاكم)، فالرسول هو الداعي المبعوث رحمة للعالمين.

لكننا نحاول في هذا البحث أن ننطلق في تفسير ذلك من زاوية أخرى، حاصلها: أن فاعل (دعاكم) إنما جاء بصيغة المفرد لا المثنى باعتبار اندكاك دعوة الرسول في الدعوة الإلهية فيكون الداعي واحداً من هذه الجهة، والتعبير بضمير المفرد بهذه الصورة يعطي دلالة عظيمة لمقام الرسالة التي يحملها الرسول ﷺ، فالداعي هو الله وهو الرسول، وقد اندكت هاتان الدعوتان لتكونان دعوة واحدة حقيقة ويكون الداعي واحداً

حقيقة، بتعبير آخر أن دعوة الرسول فانية في الدعوة الإلهية، وهناك أمثلة قرآنية أخرى تدل على هذه الحقيقة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ .. ﴾[1].

إذ أن النبي ﷺ هو الذي رمى في الظاهر لكن القرآن ينسب الرمي إلى الله حقيقة، فيعتبر الرامي واحداً وهو الله عز وجل، لأن رمية الرسول فانية في الرمية الإلهية، وفي المقام يكون الداعي كذلك، أي واحداً، فالرسول من حيثية رسالته يكون فانياً في الله سبحانه، ولذلك قلنا أن هذه الملاحظة مستبطنة في الملاحظة السابقة لأن الآثار المترتبة على الرسالة الإلهية تستند إلى الفناء الحقيقي للرسول في المرسِل وهو الله عز وجل.

ومن الأمثلة القرآنية الأخرى على هذه الحالة هو أننا نجد أن بعض الآيات القرآنية تسند إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور إلى الرسول الأكرم ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿ رَّسُولًا يَتْلُواْ

١- الأنفال: ١٧.

عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ.. ﴾[1].

وفي الوقت نفسه نجد آيات أخرى تسند الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الله سبحانه، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾..[2].

وعليه فإن الرسول عندما يعلّم ويزكي ويخرج الناس من الظلمات إلى النور إنما يفعل ذلك من خلال حيثية الرسالة الإلهية التي يكون فانياً فيها، وكذلك عندما يدعو الناس لما يحييهم، فإن دعوته فانية في الدعوة الإلهية وبالتالي لا معنى لتثنية الضمير في (دعاكم) من هذه الناحية، بمعنى أن القرآن يريد أن يبين لنا من خلال إفراد الضمير الحيثية الفنائية للرسول الأكرم في الله سبحانه، فلا يوجد عندنا اثنان لكي نقول: دَعَواكم!

١- الطلاق: ١١.

٢- البقرة: ٢٥٧.

ومما يشهد على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ..﴾[1].

إذ من المعلوم أن طريقة البيعة هو أن تكون يد الرسول الأكرم فوق يد الشخص المبايع لكن القرآن يعّبر عن ذلك بأنهم يبايعون الله! ويد الله هي التي فوق أيديهم!!

فهذه اليد المباركة الهادية المزكية المطهرة التي بعثها الله رحمة للعالمين والتي تخرج الناس من الظلمات إلى النور يعبر عنها القرآن بأنها يد الله! وليس المقصود هنا اثبات اليد المادية لله سبحانه وتعالى فإن ذلك منفي بأدلة التوحيد لا محالة، ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل المقصود هو الجهة الفنائية من وجود الرسول الأكرم ﷺ، فيده يد الله، ورميته رمية الله ودعوته دعوة الله، والاستجابة له استجابة لله، وطاعته طاعة الله، فهذه الجهة الفنائية هي سبب الحياة والنجاة. أي أنه يحيينا من موت الغفلة

١- الفتح: ١٠.

ويوجه لنا الدعوة بالحياة ﴿ دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لأنه حيّ بالحياة الإلهية المطلقة، وهذا من عظيم الصياغة القرآنية التي تُظهر مقام الرسالة العظيم المختص برسولنا الأكرم ﷺ. وفيما يلي نستعرض بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن حيثية الرسالة والآثار المترتبة عليها.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[1].

فإن حيثية الرسالة وأنهم عباد مرسلون من الله سبحانه هي المنشأ لكونهم منصورين وأن الغلبة الإلهية معهم دائماً.

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. ﴾[2].

١- الصافات: ١٧١-١٧٣.

٢- الحديد: ٢٥.

فإن قيام الناس بالقسط وبسط العدل في هذا العالم مستند إلى حيثية الرسالة الإلهية.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[1].

وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ.. ﴾[2].

فطاعة الرسول هي طاعة الله بالحقيقة وليس هي (كطاعة) كلّا.. بل هي بنفسها طاعة الله سبحانه وذلك بسبب فناء حيثية الرسالة في الله سبحانه، فالذي يطيع الرسول فقد أطاع الله حقيقة. ومن هنا يمكن القول بعدم إمكان وجود رسول من الله من دون جهة فانية في الله سبحانه.

١- النساء: ٦٤.

٢- النساء: ٨٠.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ.. ﴾[1].

فإن الولاية الإلهية وإكمال الدين وإتمام النعمة أمور مترتبة على حيثية الرسالة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ...﴾.

وبناءً على جميع ما تقدم يكون الرسول هو المحيي وهو الداعي إلى الحياة الحقيقية وهو بذلك يكون من تجليات الاسم الإلهي (المحيي)، كما قال تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

فالله سبحانه هو الذي يحيي الأرض الميتة، وهذا من آثار رحمته سبحانه.. ويمكن أن ينطبق معنى الأرض الميتة على نفس الإنسان قبل أن تتنور بنور الإيمان بالله فإذا استجاب للدعوة

١- المائدة: ٦٧.

٢- الروم: ٥٠.

الإلهية سوف يحيى برحمة الله، فهو محيي الموتى، ومن هنا نقول -حسب قوله تعالى: **إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** - أن الرسول ﷺ محيي الموتى بالحياة الإلهية الحقيقية.

وثمة رواية ينقلها المفسرون في مجال فناء دعوة الرسول ﷺ في الدعوة الإلهية تؤكد وجوب الاستجابة لدعوته ﷺ مطلقاً لأن دعوته هي دعوة الله، وهي:

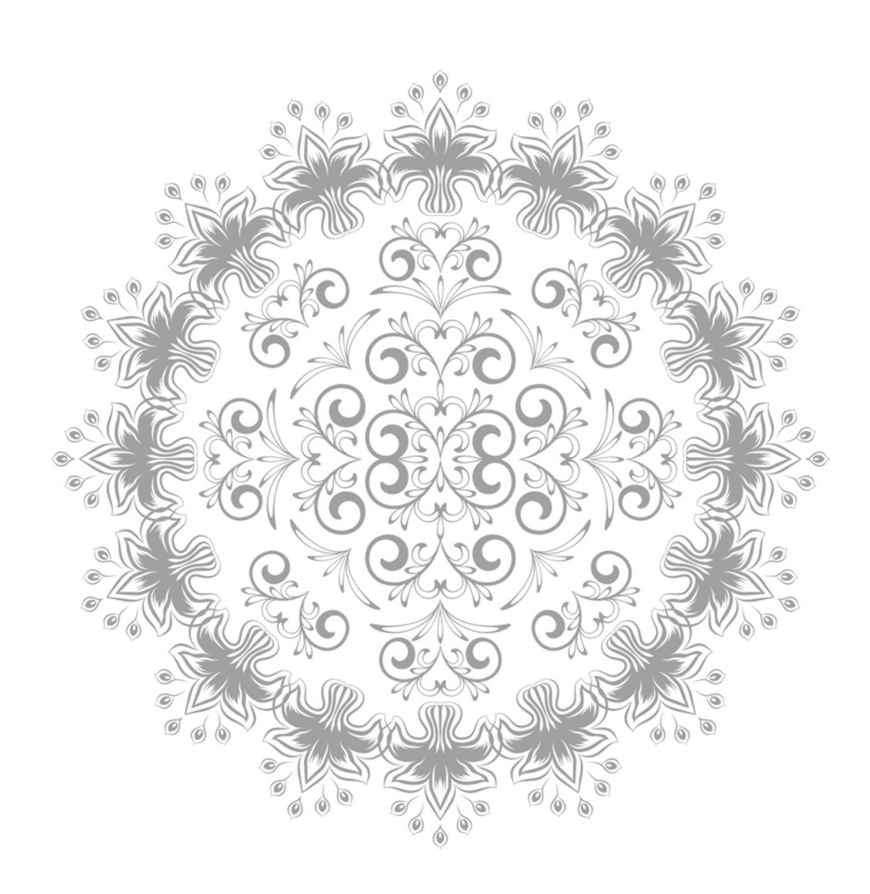
أن رسول الله ﷺ مرّ على باب أُبي بن كعب فناداه وهو في الصلاة، فعجل في صلاته ثم جاء إلى النبي ﷺ، فقال له النبي: ما منعك عن اجابتي؟ قال: كنت أصلي، فقال النبي: ألم تخبر فيما أوحي إليّ: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم؟ فقال: لا جرم لا تدعوني إلا أجبتك. وهذا مما أختص به رسول الله، يعني يجوز قطع الصلاة لندائه، أو إن اجابته لا تقطع الصلاة[1].

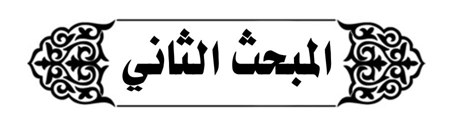
١- ينظر: عقود المرجان في تفسير القرآن، السيد نعمة الله الجزائري، ج٢، ص٢٥٣.

فالاستجابة للرسول مطلقة غير مقيدة بحال دون حال، وما ذلك إلا للجهة الفنائية التي ذكرناها سابقاً، فيكون نداءه نداء الله واستجابته استجابة لله لا محالة.

المبحث الثاني

- الفكرة الأولى (الدعوة الإلهية)
- دعوة الإنسان للّه سبحانه
- الدعوة والدعاء لغوياً
- الدعوة والدعاء من مظاهر التوحيد
- اتحاد الاستجابتين
- القرب الإلهي واستجابة الدعاء
- الإخلاص للّه لا يعني ترك الأسباب الطبيعية مطلقاً
- تعميق معنى استجابة الدعاء





المبحث الثاني

هناك فكرتان رئيسيتان في الآية الكريمة المبحوث عنها في المقام، وهما:

الفكرة الأولى: ما يمكن أن نسميه الدعوة الإلهية المستفادة من قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾.

الفكرة الثانية: ما يمكن أن نسميه الحياة الإلهية المستفادة من قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. وسنبحث هاتين الفكرتين تباعاً.

● الفكرة الأولى (الدعوة الإلهية)

هناك مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية التي قررت أن هناك دعوة مقدمة من الله سبحانه إلى الإنسان في هذا العالم. وعند التأمل فيها نجد أن الدعوة الإلهية على قسمين.

القسم الأول: الدعوة الإلهية الاضطرارية القهرية، وهي الدعوة التي ليس للإنسان الخيار في عدم الاستجابة لها، كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[٢].

ومن الواضح أن هذا القسم من الدعوة الإلهية يرجع إلى الإرادة التكوينية لله سبحانه، كما تدل عليه أيضاً الآيات التالية:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ

١- الإسراء: ٥٢.

٢- الروم: ٢٥.

ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾[1].

فهذه الدعوة لا يمكن لأي مخلوق أن يعرض عنها أو لا يستجيب لها لأنها راجعة إلى الإرادة التكوينية لله سبحانه ولا يمكن أن تختلف أو تتخلف.

القسم الثاني: الدعوة الإلهية الاختيارية، وهي التي تعود فيها الاستجابة إلى اختيار الإنسان، والآيات التي تحدثت عن هذا القسم أكثر من الآيات التي تحدثت عن القسم الأول من الدعوة، كما هو المستفاد من قوله تعالى: ﴿**ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ**﴾ فإن قوله: ﴿**ٱسۡتَجِيبُواْ**﴾ فعل أمر ظاهر في الوجوب والإلزام، ولا يمكن أن يأمر الله سبحانه بشيء إلا إذا كان مقدوراً وواقعاً تحت اختيار المكلف، ولذلك أطلقنا على هذا القسم الدعوة الاختيارية.

١- يس: ٥١-٥٣.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾[١].

وقال: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[٢].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[٣].

وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٤].

١- يونس: ٢٥.

٢- الأعراف: ١٩٨.

٣- الأحزاب: ٤٥-٤٦.

٤- فصلت: ٣٣.

وقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١].

وعند التأمل في هذه الآيات الكريمة وأشباهها يظهر أن الله سبحانه يقدم الدعوة إلى الإنسان إما مباشرة أو عن طريق رسله وأنبيائه عليهم السلام، وعلى أي حال فالداعي الحقيقي هو الله سبحانه.

على ضوء ذلك نسأل: لماذا يدعونا الله سبحانه بهذه الصورة المكثفة والصياغات المختلفة؟ ألا يمكن للإنسان أن يسير نحو الله بدون دعوة؟ بما رزقه الله من الإدراكات العقلية والقلبية والفطرية، لأن الإنسان مفطور على حبّ الكمال، ولا يمكن لأي إنسان سويّ أن يدعي بأنه يحب النقص ويريد الضرر لنفسه! بل الكل يطلب الكمال، نعم، قد يحصل الخطأ في تشخيص مصداق الكمال، فيظن البعض مثلاً أن كمالهم يتحقق بالمال أو الشهرة أو النفوذ، لكن الإنسان الصالح الذي يدرك كماله الحقيقي لا

١- آل عمران: ١٠٤.

يطلب إلا الله سبحانه لأنه يعتقد أن الله هو مصدر الكمال المطلق، لكن السؤال هو عن سبب توجيه الدعوة لهذا الإنسان، ألا تكفيه فطرته وحبه للكمال في سلوك الطريق نحو الله عز وجل؟

الجواب: أن فطرة الإنسان لو بقيت كما خلقها الله سبحانه لأمكن ذلك، لأن قوانين الفطرة لا تختلف ولا تتخلف، كما قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[1].

لكن هناك أمور أخرى غطّت هذه الفطرة وحجبتها وهي الشهوات والأهواء ووسوسة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، وجميع هذه الأمور تقدم الدعوة للإنسان للالتحاق بها، فهناك دعوة موجهة للإنسان من الشيطان.. وهناك دعوة من الأهواء

١- الروم: ٣٠.

والشهوات.. ودعوة من النفس الأمارة.. ولا يمكن أن يترك الله الإنسان وحيداً أمام هذه الدعوات التي فيها هلاك الإنسان.. لأنه خليفته في هذا العالم، وإنما يوجه له الدعوة الإلهية، بعبارة أخرى الإنسان في هذا العالم متحرك ولا يمكن له أن يدعي التوقف. فإما أن يستجيب للدعوة الإلهية ويلتحق بالحياة الحقيقية أو يستجيب للدعوات الأخرى التي فيها هلاكه.

قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. ﴾[1].

إذن ما دام هناك دعوات مقدمة للإنسان تدعوه نحو المعصية والذنب فلا بد أن تكون الدعوة الإلهية مستمرة ما دام الإنسان في عالم الاختيار، ولعل البعض يظن أن الدعوة الإلهية مقدمة للإنسان في شهر رمضان المبارك فقط، لأن النبي الأكرم ﷺ قال في خطبته المعروفة في استقبال شهر رمضان: أنه

---

١ – القصص: ٥٠.

شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله..، لكن الصحيح أن الدعوة لضيافة الله مفتوحة في كل وقت ما دام الإنسان مختاراً، وأما الدعوة الرمضانية فهي دعوة خاصة أخرى مضافاً إلى الدعوة الإلهية العامة.. لأن شهر رمضان من الأوقات المكرمة عند الله وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.. والشهر الذي أنزل فيه القرآن.. وأوجب فيه الصوم.. فله دعوة إلهية خاصة لكي يتشرف الإنسان المؤمن في أيامه ولياليه بالطاعة والتقرب لله عز وجل، وهذا لا يعني أن الدعوة الإلهية تنتهي بانتهاء هذا الشهر الكريم.. لأن الضيافة الإلهية أعظم من أن يحدها زمان أو مكان معين، بل هي مفتوحة ودائمة كما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ.. ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[2]. ولا بد أن

١- الأنفال: ٢٤.

٢- البقرة: ١٨٦.

نشير أيضاً إلى أن الدعوة الإلهية للإنسان تتضمن جميع ما يوجب وصول الإنسان إلى صاحب الدعوة ونعني بذلك مضامين الرسالات السماوية إضافة إلى العقل والقلب، فالجميع يدعو الإنسان للتوجه نحو الله سبحانه، وقد جعل الله مع ذلك السيئة بمثلها، والحسنة بعشر أمثالها، وقال إن الحسنات يذهبن السيئات، وفتح باب التوبة والعفو والمغفرة والرحمة، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ..﴾[1].

● دعوة الإنسان لله سبحانه

تكفل البحث السابق استعراض الآيات القرآنية التي تتكلم عن الدعوة الإلهية للإنسان، وبحسب آيات قرآنية أخرى نجد أن هناك دعوة من الإنسان لله سبحانه، أي أن الآيات السابقة

١- البقرة: ٢٤٥.

يكون الله سبحانه هو الداعي والإنسان هو المدعو، لكننا في هذه الآيات الأخرى نجد أن الإنسان هو الداعي والله سبحانه هو المدعو، وسوف نطلق على ذلك (الدعوة الإنسانية لله) في قبال (الدعوة الإلهية للإنسان)، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[3].

فدعوة الله هي دعوة الحق، ودعوة ما دونه هي دعوة الباطل.

---

١ - البقرة: ١٨٦.

٢- غافر: ٦٠.

٣ - الحج: ٦٢.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[1].

فهذه الآيات وأشباهها تقرر أن الإنسان تارة يكون داعياً لله سبحانه، وأخرى يكون داعياً لغير الله وهي دعوة الباطل، والدعوة الأولى تقابلها دعوة الله للإنسان، وسيأتي الحديث عنها، وأما دعوة الباطل فتعني أن يدعو الإنسان أشياءً غير الله سبحانه كالأصنام المادية والمعنوية والهوى والشهوات والنفس الأمارة بالسوء والشيطان إلى غير ذلك من أبواب الباطل.

• الدعوة والدعاء لغوياً

ولكي نعرف معنى أن يكون الإنسان داعياً لله سبحانه لا بد أن نشير إجمالاً إلى معنى الدعوة من الناحية اللغوية، فقد قال المحققون في ذلك: أن الدعوة هي توجيه نظر المدعو إلى الداعي،

---

١ - القصص: ٨٨.

فعندما ندعو الله سبحانه فإننا نطلب توجيه نظره إلينا، بأن يلتفت إلينا ويحضر عندنا ويهتم بأمرنا، وأما قضاء حاجة الداعي من قبل المدعو وكذلك سؤال الحاجة من قبل الداعي فهو معنى خارج عن المعنى اللغوي للدعوة والدعاء، بل هو من لوازمه وليس داخلاً في حقيقته، فالإنسان عندما يدعو الله سبحانه فإنما يريد بذلك أن يكون الله حاضراً عنده، وأما قضاء الحاجة فهو من متممات الدعوة كما قلنا، وأما الدعوة فهي حضور المدعو والالتفات إلى الداعي، ولا بد أن نعلم أن الدعوة الحقيقية تتم بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون المدعو الذي نوجه له الدعوة ذا نظر يمكن أن يوجهه إلى الداعي ويحضر عنده، أي توجد قابلية للالتفات والحضور من قبل المدعو، وإلا لا تكون الدعوة حقيقية حينئذٍ، بل تكون صورة دعوة ليس إلا.

الشرط الثاني: ضرورة وجود القدرة على استجابة الدعاء عند المدعو، وقضاء حاجة الداعي والالتفات إليه والحضور

عنده، وإلا إذا فقدت القدرة على ذلك فلا يمكن توجيه دعوة حقيقية له، بل ستكون دعوة باطلة أو صورة دعوة خالية عن الحقيقة.

واستناداً إلى هذين الشرطين ستكون الدعوة الحقيقية موجّهة لله سبحانه فقط، لأنه سبحانه هو القادر على توجيه نظره إلى الداعي وهو القادر على استجابة دعائه وقضاء حاجته، فتكون له دعوة الحق حسب تعبير القرآن، وإذا دعونا غير الله سبحانه فلا بد أن لا يكون ذلك بنحو الاستقلال، أي تتحقق الدعوة من المدعو استقلالاً عن الله سبحانه، لأنها حينئذٍ لا تكون دعوة حق بل دعوة باطل، لأن المدعو إذا نظرنا له استقلالاً فهو لا يملك استجابة الدعوة بل هو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً! ومن هنا يظهر دقة التعبير القرآني في قوله: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾[1] أي إذا أردت أن تدعو

---

١ - الرعد: ١٤.

دعوة حقيقية فليس أمامك إلا أن تدعو الله سبحانه، فهو المدعو بحقيقة معنى الكلمة.

قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾[1].

ثم قال: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ..﴾[2]، وهذا تشبيه دقيق ورائع للشخص الذي يدعو شيئاً من دون الله، فهو كالإنسان العطشان الذي يبسط كفيه إلى الماء من دون أن يقرب الماء من فمه ولا يقرب فمه من الماء، فيبقى عطشاناً لا محالة، يقول القرآن أن الذين يقدمون دعواتهم لغير الله سبحانه لنيل مطالبهم وقضاء حوائجهم يكون حالهم كحال هذا الإنسان الباسط كفيه إلى الماء ليلغ فاه وما هو ببالغه!

---

١ - الرعد: ١٤.

٢ - الرعد: ١٤.

وعلى أي حال فإن محصل الآيات القرآنية في هذا الموضوع أن هناك دعوتين واستجابتين، دعوة من الله للإنسان واستجابة من الإنسان لله، ودعوة من الإنسان واستجابة من الله سبحانه، ومن اللطيف أن القرآن الكريم يقرر أن دعوة الإنسان لله مستجابة قطعاً، وقد جاءت هذه الاستجابة بصياغات دقيقة وواضحة كقوله تعالى: ﴿ **فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** .. ﴾[2]، بعبارة أخرى إن الله سبحانه على جهوزية تامة وحضور كامل ومستمر في كل الأحول لاستجابة دعوة الإنسان ولا يمكن تصور البخل في ساحته عز وجل إلا أن يكون هناك قصور في توجيه الدعوة له سبحانه وفقدان أحد شروط الدعوة الحقيقية. لكن المهم في منظور هذا البحث هو دعوة الله للإنسان إذ نرى أن الأعم

---

١ - البقرة: ١٨٦.

٢ - غافر: ٦٠.

الأغلب من الناس لا يستجيبون لهذه الدعوة ومن هنا جاء التركيز القرآني على هذا النوع من الدعوة، وكأن الإنسان لا يستجيب لله سبحانه ولا يهتم ولا يلتفت لدعوته، ولذلك ورد هذا النداء الصريح بتوجيه الدعوة الإلهية للإنسان من أجل أن يحيى الحياة الحقيقية: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ..﴾[١]، إذ يبين هنا سبب الدعوة وهو (الحياة) حيث مرّ علينا في النداءات القرآنية السابقة أن القرآن يبيّن هدف النداء والدعوة الإلهية، فيقول مثلاً في نداء العبادة: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ**.. ﴾[٢]، ويقول في نداء التوبة: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا**

---

١ - الأنفال: ٢٤.

٢- البقرة: ٢١.

ٱلْأَنْهَٰرُ.. ﴾[1]، ويقول في نداء الذكر: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا** ﴾[2].

فجميع هذه النداءات هي في حقيقتها دعوات للعبادة والتوبة والذكر، وهناك ثمرات ونتائج تترتب على الاستجابة لها كل بحسبه، لكن الأمر يختلف في قوله تعالى: ﴿**ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾[3]، إذ يعتبر هذا النداء من النداءات الأعلائية في القرآن لأنه لا يتحدث عن المغفرة والثواب والقرب الإلهي فقط، بل يقرر أن حياة الإنسان متوقفة على الاستجابة لهذه الدعوة الإلهية، ولا شك أن الحياة هي أغلى وأهم شيء عند الكائن الحي لأنها مصدر جميع الكمالات والادراكات والشعور والأفعال عند الإنسان.. وكيف لا

١- التحريم: ٨.

٢- الأحزاب: ٢١.

٣- الأنفال: ٢٤.

يستجيب الإنسان الداعي والمتكلم والمنادي هو الله سبحانه؟! في حين أننا نرى كثيراً من الناس يستجيبون لدعوات أخرى لا يمكن أن تقاس بالدعوة الإلهية للحياة، كدعوات الشيطان والأهواء والشهوات والنفس الأمارة بالسوء!! بل نجد البعض يستجيب بمجرد اشارة أو وسوسة من دون تقديم دعوة له!! والحال أن الدعوة الإلهية قد سخّر لها الله سبحانه الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين وقدم في سبيل إيصالها للإنسان أغلى التضحيات.. ومع ذلك نرى الإنسان معرضاً عنها غير مهتم بشأنها! انظر إلى قوله تعالى وهو يصف حال الذين اتبعوا دعوة الشيطان واستجابوا لها، قال: ﴿ **وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ** ﴾[1].

١- إبراهيم: ٢٢.

لا شك أن كلام الشيطان هنا يعتبر إهانة بالغة بحق هؤلاء الذين اتبعوه، لأنه يقول لهم أني لم يكن لديّ سلطان عليكم، فلماذا اتبعتموني؟! في حين أن الله سبحانه هو خالقكم وله السلطة الحقيقية عليكم ومع ذلك لم تستجيبوا دعوته مع أنها دعوة الحق! فلا تلوموني ولوموا أنفسكم.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

١- الأنفال: ٤٨.

٢- الحشر: ١٦.

لنتأمل سوية في كلام الشيطان: قال إني بريء منك لأنك كفرت بالله!!

قال: إني أخاف الله ربّ العالمين!! فكيف تكفر بربّ العالمين أيها الإنسان؟!!

ولذلك يركز القرآن على حقيقة أن الشيطان هو عدو لكم، فكيف يطيع الإنسان عدوّه؟! ومن الطريف أنني لم أجد حسب مراجعتي في آيات القرآن تعبير (الشيطان عدو الله) وإنما جميع الآيات تتكلم عن أن الشيطان عدو للإنسان بالرغم من أنه تمرد على الله وخرج من رحمته سبحانه وهو ملعون لكن لم يأت تعبير (الشيطان عدو الله) بل إن عدواته مع آدم وبني آدم وتمرد على الأمر الإلهي بالسجود بسبب هذه العداوة لآدم وبنيه.. ومع كل ذلك نرى الإنسان –مع شديد الأسف- يترك الدعوة الإلهية ويركض لاستجابة دعوة الشيطان الذي هو عدوّه الحقيقي الذي يريد هلاكه الأبدي!

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[١].

فادعوه مخلصين، لأنه هو الحي، ودعوته هي دعوة الحق.. اجعلوا حياتكم عامرة بالحضور الإلهي.. لا تتركوا زاوية من زوايا حياتكم خالية من هذا الحضور.. ادعوه ولا تدعوا غيره.

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾[٢].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾[٣].

١- غافر: ٦٥.

٢- غافر: ٤١-٤٢.

٣- الأعراف: ١٩٧.

فكل دعوة لغير الله تكون باطلة، لأن كل شيء من دون الله لا يستطيع أن ينصر نفسه أو يجلب الكمال لنفسه، ومن المنطقي حينئذٍ أنه عاجز عن جلب الكمال لغيره، فكيف توجه الدعوة له في قضاء الحوائج وهو على هذه الدرجة من العجز والقصور؟ وفي قبال ذلك نجد أن الله سبحانه يؤكد ويقول: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ .. ﴾[1].

إن هذه الآية الكريمة تقرر أن الله سبحانه دائماً على جهوزية تامة ومستمرة لاستجابة دعوة الإنسان، وفي قبال ذلك لا بد أن يكون الإنسان أيضاً على جهوزية تامة لاستجابة الدعوة الإلهية ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ﴾.. بعبارة أخرى أن الآية الكريمة تجعل نوع من المقابلة بين استجابة الله لدعوة الإنسان واستجابة الإنسان لدعوة الله سبحانه، ولا شك أن هذه المقابلة ترسم لنا صورة

---

١ – البقرة: ١٨٦.

رائعة عن الأدب الإلهي في القرآن، حيث تقرر أن الله سبحانه.. خالق كل شيء.. والعظيم في كل شيء.. الذي بيده ملكوت السموات والأرض.. يقول: إني قريب أجيب دعوة الداعي.. ويطلب من الإنسان المخلوق الضعيف العاجز الفقير أن يستجيب له سبحانه! ومراعاة لأدب مقابلة الإحسان بالإحسان لا بد أن يستجيب الإنسان للدعوة الإلهية.. لماذا ندعو الله في وقت الشدة والاضطرار فقط؟ وفي وقت آخر نعرض عنه ونرفض الدعوة الإلهية؟

قال تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾[1].

١ - غافر: ٤٣.

• الدعوة والدعاء من مظاهر التوحيد

من خلال التأمل في الآيات الكريمة التي تحدثت عن الدعوة الإلهية للإنسان والدعوة الإنسانية لله سبحانه يظهر أن الدعوة والدعاء من الإنسان هو أحد مظاهر توحيد الله سبحانه، لأن الإنسان يعتقد أن الله سبحانه هو الرزاق والخالق والمنعم وله الأسماء الحسنى والصفات العليا فهو الذي يستحق الدعوة لا سواه وهو الذي له دعوة الحق والذين من دونه ليس لهم دعوة حق وبالتالي فإن ذلك يرجع في جوهره إلى توحيد الله سبحانه في الدعوة والدعاء.

ولتوضيح هذا المعنى وتأكيده نتوقف عند هذا المقطع القرآني من سورة النمل، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

يقرر هذا المقطع المبارك مجموعة من الصفات والأفعال المختصة بالله عز وجل ثم يذكر في ذيل كل آية قوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ وهو سؤال استنكاري لنفي الشرك وإثبات التوحيد، وقد تكررت هذه العبارة خمس مرات كما هو ظاهر، فالآيات تقرر أن الله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة، وهو الذي جعل

١- النمل: ٥٩-٦٤.

الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ورواسي، وهو الذي يكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، وهو الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزقكم من السماء والأرض، فهل من إله آخر يفعل ذلك كله؟ الجواب: كلا، بل هو الله وحده لا شريك له، ومحل الشاهد في هذا المقطع هو قوله تعالى: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ** ﴾[1] بمعنى: هل هناك شيء أو موجود غير الله سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه؟ ويكشف السوء؟ الجواب أيضاً: كلا، ما دام الله سبحانه هو خالق السموات والأرض وبيده ملكوت كل شيء فلا مجيب غيره سبحانه، فدعوة المضطر هي مظهر من مظاهر التوحيد الحقيقي، لأن مقتضى التوحيد الحقيقي أن لا تدعو إلهاً مع الله سبحانه لأنه لا يوجد إله غير الله في الحقيقة، فالله سبحانه وحده هو المجيب وهو الكاشف، ومن المهم أن

١- النمل: ٦٢.

نلتفت إلى التعبير القرآني في المقام عندما يقول: ﴿ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ ، أي أن السوء والبلية تحيط بالإنسان وتغطيه من جميع الجهات، والمضطر يدعو الله سبحانه أن يكون حاضراً عنده في لحظة السوء والبلية لكي يكشفها عنه ويرفع غطاء السوء الذي أحاط بهذا الإنسان المضطّر، فالله سبحانه هو الكاشف.

قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾[2].

فإن الأسماء الإلهية هي الحاكمة والمتصرفة في جميع مستويات الوجود والكون.. فعندما يدعو الإنسان بالرزق فإن الإسم (الرزاق) هو الذي يتصرف.. وعندما يدعو بالرحمة فإن

١- الأنعام: ١٧.

٢- الإسراء: ١١٠.

الإسم (الرحمن) هو الذي يتصرف.. وعندما يدعو بالمغفرة فإن الإسم (الغفور) هو الذي يتصرف.. وعندما يدعو بالنصرة على الظالم فإن الإسم (المنتقم) هو الذي يتصرف، وهكذا.. فأسماؤه الحسنى هي المسيطرة والمهيمنة في الكون.. وحيث أن أسماءه عين ذاته ولا إثنينية بينها وبين الحق سبحانه وتعالى فيكون المدعو هو الله حقيقة فهو الرزاق والرحمن والغفور والمنتقم وأياً ما تدعو فله الأسماء الحسنى.

● اتحاد الاستجابتين

قلنا أن هناك استجابتين، استجابة الإنسان لله سبحانه، واستجابة الله للإنسان، ولو دققنا في حقيقتهما لوجدناهما عبارة عن استجابة واحدة، بمعنى أن الإنسان إذا استجاب للدعوة الإلهية ولبى نداء الله، فهذه الاستجابة هي نفسها الحضور الإلهي والاستجابة الإلهية للإنسان، لأن الإنسان عندما يستجيب لله سبحانه يكون حاضراً عند الله سبحانه وفي نظر الله سبحانه وهذا

يعني أن الله مستجيب له حقيقة، فنفس استجابة الإنسان إذا تحققت بالدقة فهي استجابة الله سبحانه للإنسان.. لأننا نسأل: من الذي أعطانا الحول والقوة والقدرة لكي نستجيب لله؟! والجواب: هو الله نفسه! إذن فهو مستجيب لنا قبل اجابتنا ومعها وبعدها! وهذا يعني أن الاستجابة لله سوف تمزق وترفض جميع الدعوات الأخرى المقدمة للإنسان كدعوة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء والشهوات والأهواء.

قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾[2].

١- الأنبياء: ٧٦.

٢- الأنبياء: ٨٤.

وقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾[3].

فقوله: ﴿ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا.. ﴾ يعني أن الأسباب المادية كلها لو كانت مع الإنسان فهي لا تجلب له نفعاً

---

١ – الأنبياء: ٨٧–٨٨.

٢– الصافات: ٧٥.

٣– الرعد: ١٨.

ولا ترد عنه ضراً أمام الله سبحانه، لأن هذه الأسباب نفسها محتاجة لله سبحانه.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1].

إن هذه الصورة هي أحد الحالات الرائعة التي يذكرها القرآن حول الاستجابة الإلهية لدعوة الإنسان في حالات الشدة والاضطرار، فعندما تعرض يوسف عليه السلام لذلك الموقف الرهيب أمام إغراءات النسوة وكيدهن توجه إلى الله سبحانه لا غير حيث قال: ربّي السجن أحب إليّ! أي دعا الله سبحانه أن يحضر عنده ويكشف عنه هذا الكيد.. ويصرف عنه هذا السوء والبلاء، فقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ.. ﴾.. ومن هنا نفهم أن قانون وسنّة الاستجابة الإلهية في القرآن يجعل حياة الإنسان

---

١ - يوسف: ٣٣-٣٤.

محاطة بالحضور الإلهي ومستندة إلى الركن الإلهي.. والله سبحانه يعلمنا ويربينا على التمسك بهذه السنّة دائماً والتي تعتبر من أهم مظاهر التوحيد في حياة الإنسان. فإن التوحيد الحقيقي يقتضي أن لا ندعوا غير الله.. ولا نناجي غير الله... ولا نستعن بغير الله.. لأن الله هو المحيط بالإنسان والأقرب إليه من كل شيء.. والحاضر معه في جميع حالاته..

انظروا مثلاً هل يستطيع الإنسان أن ينادي الناس الغائبين عنه عندما يمر بالشدة والاضطرار؟ كلا وإنما ينادي الحاضرين الذين يسمعونه ويدركون الحالة التي يمر بها.. والله سبحانه وتعالى يقول أنا معكم أينما كنتم وأنا أقرب إليكم من حبل الوريد.. أجيب دعوة الداع إذا دعاني! ومن الجدير بالالتفات أن دعوة الله سبحانه والاستعانة به بالمعنى الذي قدمناه لا تعني بالضرورة عدم حقانية الاستعانة بالأسباب والتوسل بها للوصول إلى الغايات المشروعة، بل المقصود هو عدم الاستناد إلى الأسباب بشكل مستقل عن الله سبحانه، لأنه سبحانه هو

مسبب الأسباب وهو المحرك لها وبالتالي هو المستعان به والمدعو الحقيقي، وعليه فدعوة الله سبحانه لا تعني إلغاء دور الأسباب الطبيعية بالمرّة، فتناول الدواء عند المرض لا ينافي التوكل والاستعانة بالله عز وجل، لأن الدواء سبب من الأسباب التي جعل الله فيها الشفاء من المرض ولا نعتقد أن الدواء يرفع الألم بصورة مستقلة عن القدرة الإلهية.. والحاصل أننا نفهم من خلال هذا التركيز القرآني على دعوة الله سبحانه والاستعانة به وحده لا شريك له أن الله سبحانه حاضر للاستجابة لدعوة الإنسان إكراماً للإنسان نفسه وإلا فإن الله قادر على أن يوكل الإنسان إلى نفسه فيضيع في متاهات الأسباب المادية، لكنه سبحانه يؤكد أنه أقرب من حبل الوريد وأنه يحول بين المرء وقلبه، وفي هذا المجال يبين الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في أحد أدعية الصحيفة السجادية علاقة الإكرام بين الله سبحانه وبين عبده الذي يدعوه ويستعين به، حيث يقول:

(الحمد لله الذي أدعوه فيجيبني وإن كنت بطيئاً حين يدعوني، والحمد لله الذي أساله فيعطيني وإن كنت بخيلاً حين يستقرضني، والحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي وأخلو به حيث شئت لسري بغير شفيع فيقضي حاجتي، والحمد لله الذي أدعوه ولا أدعو غيره ولو دعوت غيره لم يستجب لي، والحمد لله الذي أرجوه ولا أرجو غيره ولو رجوت غيره لأخلف رجائي والحمد لله الذي وكلني إليه فأكرمني)[1].

فالله سبحانه دائماً في موضع إجابة لدعاء الإنسان فيوكل أمر الإنسان إليه إكراماً للإنسان نفسه، لأنه لو أوكل أمر الإنسان وتركه للأسباب فقط فإن الإنسان حينئذٍ يعيش المهانة والذلّ، وعلى حدّ تعبير الإمامعليه السلام: ولم يكلني إلى الناس فيهينوني!

١- الصحيفة السجادية: أدعية الإمام علي بن الحسين زين العابدينعليه السلام، دعاء أبي حمزة الثمالي.

● القرب الإلهي واستجابة الدعاء

إن قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾[1] يعد من النصوص القرآنية الرئيسية والمحورية في بحث الدعاء، ومن الواضح أن الآية الكريمة تنص على أن الله سبحانه قريب ويجيب دعوة الداعي دائماً، ومن هنا يثار السؤال التالي:

إننا في أغلب الأحيان ندعو الله سبحانه ولكن لا نجد استجابة لهذا الدعاء، فكيف ينسجم ذلك مع ما تقرره الآية الكريمة؟

وحينما ندقق النظر في هذا النص القرآني نجد أن إجابة دعوة الداعي مترتبة على القرب الإلهي لأنه تعالى قال: فإني قريب

١- البقرة: ١٨٦.

أجيب دعوة الداعي، فما هي العلاقة بين القرب من الله وبين استجابة الدعوة؟

ونلاحظ من جهة أخرى أنه أتى بلفظ (العبادة) و(القرب) ثم استجابة الدعوة، ومن الواضح أن هناك ترابطاً منهجياً بين هذه المضامين، فلا بد أن نبحث في العبادة والعبودية ثم نبحث علاقة ذلك بالقرب الإلهي واستجابة الدعاء.

إن العبادة والعبودية لله سبحانه ترجع إلى أن الله سبحانه مالك لنا بالملك التكويني، والملكية التكوينية تختلف عن الملكية الاعتبارية، فعندما نقول: أن الله يملك الإنسان فإن ذلك يختلف اختلافاً جوهرياً عن قولنا: زيد يملك الكتاب، وفي هذا المجال يقول العلامة الطبأطبائي قدس سره:

وملكه تعالى يغاير ملك غيره مغايرة الجدّ مع الدعوى ومغايرة الحقيقة مع المجاز، فإنه تعالى يملك عباده ملكاً طلقاً محيطاً بهم لا يستقلون دونه في أنفسهم ولا ما يتبع أنفسهم من الصفات والأفعال وسائر ما ينسب إليهم من الأزواج والأولاد

والمال والجاه وغيرها، فإن جميع ما يملكونه سواء من جهة إضافته إليهم بنحو من الأنحاء كما في قولنا: نفسه، وبدنه، وسمعه، وبصره، وفعله، وأثره، وهى أقسام الملك بالطبع والحقيقة، وقولنا: زوجه وماله وجاهه وحقه، وهي أقسام الملك بالوضع والاعتبار.. إن جميع ذلك إنما يملكونه بإذنه تعالى في استقرار النسبة بينهم وبين ما يملكون، فالله عز اسمه، هو الذي أضاف نفوسهم وأعيانهم إليهم ولو لم يشأ لم يضف فلم يكونوا من رأس، وهو الذي جعل لهم السمع والابصار والأفئدة، وهو الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً.

بناءً على هذا النوع من المالكية التكوينية الاحاطية ينتج أنه سبحانه هو الحائل بين الشيء ونفسه، وهو الحائل بين الشيء وبين كل ما يقارنه: من ولد أو زوج أو صديق أو مال أو جاه أو حق، فهو أقرب إلى خلقه من كل شيء مفروض، فهو سبحانه قريب على الاطلاق كما قال تعالى: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا**

نُبۡصِرُونَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ** ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ** ﴾[٣].

وعليه فملكه سبحانه لعباده ملكاً حقيقياً وكونهم عباداً له هو الموجب لكونه تعالى قريباً منهم على الاطلاق وأقرب إليهم من كل شيء، وهذا الملك الموجب لجواز كل تصرف شاء كيفما شاء من غير دافع ولا مانع يقتضي أن الله سبحانه أن يجيب أي دعاء دعا به أحد من خلقه ويقضي حاجته التي سأله فيها، بمعنى أن الملك الإلهي عام وسلطانه واحاطته واقعتان على جميع التقادير، فلا يملك شيء شيئاً إلا بتمليك منه سبحانه وإذن منه، فما شاءه وملّكه وأذن في وقوعه، يقع، وما لم يشأ ولم يملّك ولم

١- الواقعة: ٥٨.

٢- ق: ١٦

٣- الأنفال: ٢٤.

يأذن فيه لا يقع وإن بذل في طريق وقوعه كل جهد وعناية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾[1].

فقد تبين: أن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[2] كما يشمل على الحكم أعني إجابة الدعاء كذلك يشتمل على علله وأسبابه، فكون الداعين عباداً لله تعالى هو الموجب لقربه منهم، وقربه منهم هو الموجب لإجابته المطلقة لدعائهم، ومن الواضح أن اطلاق الإجابة وعدم تقييدها يستلزم اطلاق الدعاء، بمعنى أن كل دعاء دعي به فإنه مجيبه.

إلا أن ها هنا أمراً وهو أنه تعالى قيد قوله: (أجيب دعوة الداع) بقوله: (إذا دعان) وهذا القيد يدل على اشتراط الحقيقة دون التجوز والشبه، فإن قولنا: اصغ إلى قول الناصح إذا

١- فاطر: ١٥.

٢- البقرة: ١٨٦.

نصحك، أو أكرم العالم إذا كان عالماً، يدل على لزوم اتصافه بما يقتضيه حقيقة، فالناصح إذا قصد النصح بقوله فهو الذي يجب الاصغاء إلى قوله، والعالم إذا تحقق بعلمه وعمل بما علم كان هو الذي يجب إكرامه، فقوله تعالى: (إذا دعان) يدل على أن وعد الإجابة المطلقة إنما هو إذا كان الداعي داعياً بحسب الحقيقة مريداً بحسب العلم الفطري والغريزي موطئاً لسانه قلبه، فإن حقيقة الدعاء والسؤال هو الذي يحمله القلب ويدعو به لسان الفطرة وليس ما يأتي به اللسان الذي يدور كيفما أدير صدقاً أو كذباً، جداً أو هزلاً، حقيقة أو مجازاً، ولذلك ترى أنه تعالى جعل ما لا عمل للسان فيه سؤالاً، قال تعالى: ﴿**وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾[1]، والمعنى أنهم فيما لا يحصونها من النعم داعون سائلون، ولم يسألوها بلسانهم الظاهر، بل بلسان فقرهم

---

١ - إبراهيم: ٣٤.

واستحقاقهم لساناً فطرياً وجودياً، وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[1].

وعليه فإن السؤال الفطري الحقيقي لا يتخطى الإجابة، وأما ما لا يستجاب من الدعاء ولا يصادف الإجابة فقد فَقَدَ أحد أمرين وهما اللذان ذكرهما بقوله: ﴿دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2].

أي أن عدم استجابة الدعاء يعود إلى أحد أمرين:

الأمر الأول: عدم تحقق الدعاء أصلاً، وإنما إلتبس الأمر على الداعي فتصور أنه يدعو دعاءً حقيقياً، والواقع ليس كذلك، كأن يدعو الإنسان ويسأل شيئاً لا يريده حقيقة لو انكشف له على حقيقته، ولو علم بحقيقته لم يسأله أصلاً.

الأمر الثاني: أن السؤال والدعاء قد يكون متحققاً لكن لا من الله وحده، كمن يسأل الله حاجة من حوائجه وقلبه متعلق

---

١ – الرحمن: ٢٩.

٢ – البقرة: ١٨٦.

بالأسباب المادية أو بأمور وهمية توهمها كافية في أمره أو مؤثرة في شأنه فلم يخلص الدعاء لله سبحانه، بمعنى أنه لم يسأل الله بالحقيقة، فإن الله الذي يجيب الدعوات هو الذي لا شريك له في أمره، وليس من يعمل بشركة الأسباب والأوهام، والحاصل أن هاتين الطائفتين من الدعاة السائلين لم يخلصوا الدعاء بالقلب وإن أخلصوه بلسانهم.

فهذا ملخص القول في الدعاء على ما تفيده الآية، وبه يظهر معاني سائر الآيات النازلة في هذا الباب كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ** ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ** ﴾[2].

---

١ – الفرقان: ٧٧.

٢ – الأنعام: ٤٠–٤١.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[1].

فالآيات دالة على أن للإنسان دعاءً غريزياً وسؤالاً فطرياً يسأل به ربه، غير أنه إذا كان في رخاء ورفاه تعلقت نفسه بالأسباب فأشركها بربّه، فالتبس عليه الأمر وزعم أنه لا يدعو ربّه، والحال أنه لا يسأل غير الله حقيقة فإنه على الفطرة ولا تبديل لخلق الله تعالى، ولما وقعت الشدة وطارت الأسباب عن تأثيرها وفقد الشركاء والشفعاء تبين له أن لا منجح لحاجته ولا مجيب لمسألته إلا الله، فعاد إلى توحيده الفطري ونسي جميع الأسباب، ووجّه وجهه نحو الربّ الكريم فكشف شدته وقضى حاجته.

---

١ - الأنعام: ٦٣-٦٤.

وبذلك يظهر معنى آيات أخر من هذا الباب كقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات المناسبة وهي تشتمل على أركان الدعاء وآداب الداعي، وعمدتها الإخلاص في دعائه تعالى، وهو مواطاة القلب اللسان والانقطاع عن كل سبب دون الله والتعلق به تعالى، ويلحق به الخوف والطمع والرغبة والرهبة والخشوع والتضرع والاصرار والذكر وصالح العمل والإيمان وأدب الحضور وغيرها[3].

ومن الجدير بنا أن نؤكد هنا على ما ذكره السيد الطبأطبائي قدس سره في الأمر الأول من أسباب عدم استجابة الدعاء

---

١ - غافر: ١٤.

٢ - الأعراف: ٥٦.

٣ - الميزان في تفسير القرآن: ج٢، ص٣٢-٣٦. بتصرف.

وهو أننا نطلب من الله أن يحقق لنا أشياء لو اطلعنا على واقعها وحقيقتها لما طلبنا تحقيقها أصلاً.. أي لو انكشفت لنا عواقبها لدعونا الله أن لا يحققها لنا من الأساس وذلك لما فيها من الضرر البليغ على مسيرتنا التكاملية بل وما فيها من فساد وسوء يهدد وجودنا الدنيوي والأخروي، ومن هنا ورد هذا الدعاء: (إلهي لعلّ الذي أبطأ عني هو خير لي لعمك بعاقبة الأمور..)[1].

فأن الله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى ما تقوله ألسنتنا بل ينظر إلى سؤالنا الحقيقي وطلبنا التكويني الفطري ومن الواضح أن اللسان قد يطلب شيئاً لا تريده الفطرة –بسبب جهل الإنسان الداعي– لأنها تعلم أن تحقيق هذا الطلب يجلب لها الضرر والسوء.. ضرورة أن الفطرة ثابتة في قوانينها وهي دائماً تطلب كمالها لا ضررها.. فالله سبحانه ينظر إلى لسانك الفطري، وهذا اللسان يرفض استجابة طلب اللسان المادي فلا يستجيب الله

---

١ – من دعاء الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في الاستعانة وطلب المغفرة.

طلب الداعي الوارد على لسانه المادي، ولا شك أن هذا الاختلاف بين اللسان الباطني الفطري وبين اللسان المادي يرجع إلى الجهل بحقائق الأمور، بل نستطيع القول أن أغلب الخلل الذي يصيب علاقتنا مع الله سبحانه ناتج من الجهل، وهذا المعنى هو ما يؤكد عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومن الأمثلة القرآنية الرائعة التي تصلح شاهداً على هذا الموضوع هي قصة النبي موسى عليه السلام مع العبد الصالح الذي خرق السفينة في وسط البحر إذ أن هذا الفعل في ظاهره يكون مدعاة لهلاك السفينة وأهلها حتى أن موسى عليه السلام قال: أخرقتها لتغرق أهلها؟! ومن الواضح أننا لو مررنا بنفس الموقف ورأينا شخصاً يخرق السفينة التي نركبها في عرض البحر فإننا سوف

١ - البقرة: ٢١٦.

نستنكر هذا الفعل بل ونمنع فاعله من القيام به!! لكن بعد ما سأله موسى عليه السلام عن حقيقة هذا الفعل بيّن العبد الصالح أن هذا الخرق كان في صالح أهل السفينة وهو سبب لنجاتهم لأن هناك ملكاً كان يأخذ كل سفينة غصباً!! فأردت أن أعيبها حفظاً لها من هذا الملك الغاصب.. والحاصل من هذه القصة أن هناك أفعالاً وأموراً نراها خيراً لنا وهي في حقيقتها شرّ لنا، وهناك أمور نراها شراً لنا وهي في حقيقتها خير لنا.. كل ذلك بسبب جهلنا بحقائق الأمور وعواقبها التي يعلمها الله عز وجل.. ومن هنا فإننا قد ندعو الله سبحانه بأمور هي في حقيقتها ضرر بالنسبة إلينا بسبب جهلنا وقصورنا وفي مثل هذه الحالة لا شك أن الله لا يستجيب مثل هذا الدعاء لأنه لا يريد لنا الخير.

• الإخلاص لله لا يعني ترك الأسباب الطبيعية مطلقاً

ذكرنا في البحث السابق أن الركن الأساسي في استجابة الدعاء هو الإخلاص لله سبحانه، ومن هنا قد يفهم أن الاستفادة من الأسباب الطبيعية في حياتنا ونيل مطالبنا تكون منافية للإخلاص.. خصوصاً عندما نقرأ بعض الروايات التي تتحدث عن الإخلاص في الدعاء.

منها ما ورد في عدة الداعي عن محمد بن عجلان عن محمد بن عبيد الله بن علي بن الحسين عن ابن عمه الصادق عن آبائه عن النبي ﷺ، قال: (**أوحى الله إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه: وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل آمل غيري بالإياس ولأكسونَّه ثوب المذلّة في الناس ولأبعدنّه من فرجي وفضلي، أيأمل عبدي في الشدائد غيري، والشدائد بيدي، ويرجو سواي وأنا الغني الجواد، بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني؟**)

وفي عدة الداعي أيضاً: **عن النبي ﷺ قال: قال الله: ما من**

مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السموات وأسباب الأرض من دونه، فإن سألني لم أعطه وإن دعاني لم أجبه، وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السماوات والأرض رزقه، فإن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وإن استغفرني غفرت له[1].

فإن الظاهر من لسان هذه الروايات وأشباهها أن اعتماد الإنسان واعتصامه بغير الله يكون منافياً لإخلاصه.. بمعنى آخر أن هذه الروايات تريد أن تقرر أنه لا تأثير للأسباب الطبيعية في حياتنا وليس من الصحيح للإنسان الركون والاعتماد عليها.. لكن من الواضح أن هذا الفهم ليس صحيحاً كما سنبين ذلك، وقد نشأ من هذا الفهم الخاطئ إشكال آخر معروف في ثقافتنا الدينية والمتشرعية وهو أن الإنسان الذي يستند إلى الأسباب

---

١ – عدة الداعي ونجاح الساعي، أحمد بن فهد الحلي، صححه وعلق عليه أحمد الموحدي القمي، ص١٢٣، و ص١٢٤.

الطبيعية في قضاء حوائجه سوف يُتّهَم بأنه غير متوكّل على الله سبحانه!

وفي مقام الجواب عن هذا الإشكال نريد القول أن التوكل على الله سبحانه والإخلاص له لا يتنافى مع الاستفادة من الأسباب الطبيعية في الوصول إلى مطالبنا ومراداتنا في هذا العالم. وذلك من خلال البيان التالي:

إن الإنسان إذا أراد أن يطلب شيئاً من الله سبحانه فهناك ثلاث حالات يمكن تصويرها في هذا الموضوع، هي:

١- أن يطلب حاجته بالتوكل على الله سبحانه وتعالى فقط من دون أي نظر أو التفات إلى الأسباب الطبيعية، فيقول: إني متوكل على الله سبحانه ولا أستعين بأي سبب طبيعي للوصول إلى مطلوبي، ومثال هذه الحالة كمن يريد من الله أن يرزقه المال الكثير وهو جالس في بيته من دون الاستعانة بأي سبب طبيعي لا بقليل ولا بكثير، ولا شك أن هذا النحو من الطلب مخالف للقرآن بل للعقل أيضاً، وحسب تعبير العلامة الطباطبائي قدس سره

فإن هذا من أعظم الجهل.

٢- أن يطلب قضاء حاجته ونيل مطلبه بالركون إلى الأسباب الطبيعية بشكل تام وبمعزل عن الله سبحانه، فيقول: إنني أحصل على المال بالتجارة والحنكة والذكاء ولا علاقة لله بذلك لا من قريب ولا من بعيد، فالطبيب والدواء هما سبب الشفاء من المرض ولا علاقة لذلك بالله سبحانه، ولا شك أيضاً أن هذا النحو من الطلب مخالف للعقل والقرآن، إذ لا يمكن أن نتصور شيئاً من الأسباب الطبيعية يكون مستقلاً بتأثيره عن الله سبحانه، بل جميع هذه الأسباب محتاجة إلى فاعل ومؤثر حقيقي بذاته وليس هو إلا الله عز اسمه.

٣- أي يطلب العبد قضاء حاجته من خلال الاستناد إلى الأسباب الطبيعية لكنه يرى أن هذه الأسباب كلها بيد الله سبحانه ولا تأثير لها إلا بمشيئة الله وإرادته وعلمه، فالطبيب والدواء صحيح أنهما سببان للشفاء ودفع الألم مثلاً، ولكن المريض يعتقد أن المشافي الحقيقي هو الله عز وجل، وعندما

يتناول العطشان الماء فإن الرافع الحقيقي للعطش أيضاً هو الله سبحانه، بمعنى أن الفاعل الحقيقي لكل شيء في الوجود هو الله لكن بتوسط الأسباب الطبيعية، فاعتماد الإنسان على هذه الأسباب في مثل هذه الحالة ليس اعتماداً مستقلاً عن الله لكي يكون منافياً للإخلاص والتوكُّل، فالله سبحانه هو الذي أعطى للدواء قابلية رفع المرض وخلق هذا العالم بنظام الأسباب والمسببات.

فعندما يقول شخص أنا متوكل على الله ولا أتناول الدواء عند المرض لأن الدواء شيء آخر غير الله سبحانه وهو ينافي إخلاصي وتوكلي، ويعتقد أن ذلك ينافي التوحيد الحقيقي، فإننا نسأل هذا الشخص: أن هذه الأسباب الطبيعية كالدواء وغيره من الذي خلقها؟!! والجواب: كما ذكرنا قبل قليل أن الله سبحانه هو الذي أعطى القابلية والقدرة لهذه الأسباب الطبيعية لكي يصل من خلالها الإنسان لقضاء حوائجه ونيل مطالبه في هذا العالم.

ثم يمكننا أن نسأل هذا الشخص وأمثاله سؤالاً آخراً:

هل يمكن للإنسان أن يترك الاستناد إلى الأسباب الطبيعية مطلقاً؟

فيقول: أنا لا آكل.. ولا أشرب.. ولا أتكلم.. ولا أمشي.. ولا أعمل.. ولا أستعمل لساني ولا جوارحي لأني متوكل على الله سبحانه؟!! والجواب بالنفي أكيداً، لأن الله سبحانه قضى أن تجري الأمور بأسبابها في هذا العالم الذي خلقه الله بمقتضى علمه بالنظام الأحسن.. وعليه فعندما تؤكد الروايات على الإخلاص في الدعاء فهذا لا يعني ترك الأسباب الطبيعية وعدم الاستفادة منها بشكل مطلق.

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره: (وما اشتمل عليه الحديثان -المرويان عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله- هو الإخلاص في الدعاء وليس إبطالاً لسببية الأسباب الوجودية التي جعلها الله تعالى وسائل متوسطة بين الأشياء وبين حوائجها الوجودية لا عللاً فيّاضة مستقلة دون الله سبحانه. وللإنسان شعور باطني بذلك،

فإنه يشعر بفطرته أن لحاجته سبباً معطياً لا يتخلّف عنه فعله، ويشعر أيضاً أن كل ما يتوجّه إليه من الأسباب الظاهرية يمكن أن يتخلف عنه أثره، فهو يشعر بأن المبدأ الذي يبتدئ عنه كل أمر والركن الذي يعتمد عليه وتركن إليه كل حاجة في تحققها ووجودها هو غير هذه الأسباب ولازم ذلك أن لا يركن الركون التام إلى شيء من هذه الأسباب بحيث ينقطع عن السبب الحقيقي ويعتصم بذلك السبب الظاهري. والإنسان ينتقل إلى هذه الحقيقة بأدنى توجُّه والتفات، فإذا سأل أو طلب شيئاً من حوائجه فتحقق ما طلبه سيكشف ذلك أنه سأل ربّه واتصل بحاجته التي شعر بها بشعوره الباطني الفطري من طريق الأسباب إلى ربّه فاستفاض منه، وإذا طلب ذلك من سبب من الأسباب فليس ذلك من شعور فطري باطني وإنما هو أمر صوّره له تخيله لعلل أوجبت هذا التخيُّل من غير شعور باطني فطري بالحاجة، وهذا من الموارد التي يخالف فيها الباطن الظاهر.

ونظير ذلك: أن الإنسان كثيراً ما يحب شيئاً ويهتم به حتى

إذا تحقق وجده ضاراً بما هو أنفع منه وأهم فترك الأول وأخذ بالثاني، وربما هرب من شيء حتى إذا صادفه وجده أنفع وخيراً مما كان يتحفظ به، فأخذ الأول وترك الثاني، فالصبي المريض إذا عرض عليه الدواء المرّ امتنع من شربه وأخذ بالبكاء وهو يريد الصحة، فهو بشعوره الباطني يسأل الصحة فيسأل الدواء وإن كان بلسان قوله أو فعله يسأل خلافه، فللإنسان في حياته نظام بحسب الفهم الفطري والشعور الباطني، وله نظام آخر بحسب تخيله، والنظام الفطري لا يقع فيه خطأ ولا في سيره خبط، وأما النظام التخيلي فكثيراً ما يقع فيه الخطأ والسهو، فربما سأل الإنسان أو طلب بحسب الصورة الخيالية شيئاً، وهو بهذا السؤال بعينه يسأل شيئاً آخر أو خلافه[1].

على ضوء ما تقدّم فإن تأكيد الروايات على الاستعانة بالله والتوكل على الله سبحانه (إنما هو إرشاد إلى التعلُّق بالله في

---

١ - الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٣٧.

السؤال والاستعانة بحسب الحقيقة، فإن هذه الأسباب العادية التي بين أيدينا سببيتها محدودة على ما قدر الله لها من الحد وليس على ما يتراءى من استقلالها في التأثير، بل ليس لها إلا الوساطة في الإيصال، والأمر بيد الله تعالى، فالواجب على العبد أن يتوجه في حوائجه إلى جناب العزة وباب الكبرياء ولا يركن إلى سبب بعد سبب، وإن كان أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها، وهذه دعوة إلى عدم الاعتماد على الأسباب إلا بالله الذي أفاض عليها السببية لا أنها دعوة إلى إلغاء الأسباب والطلب من غير السبب، فإن ذلك طمع فيما لا مطمع فيه، كيف والداعي يريد ما يسأله بالقلب، ويسأل ما يريده باللسان ويستعين على ذلك بأركان وجوده وكل ذلك أسباب؟!

واعتبر ذلك بالإنسان حيث يفعل ما يفعل بأدواته البدنية فيعطي ما يعطي بيده، ويرى ما يرى ببصره، ويسمع ما يسمع بأذنه، فمن يسأل ربه بإلغاء الأسباب كان كمن سأل الإنسان أن

يناوله شيئاً من غير يد! أو ينظر إليه من غير عين! أو يستمع من غير أذن!

وكذلك من ركن إلى سبب من دون الله سبحانه كان كمن تعلق قلبه بيد إنسان آخر في إعطائه، أو بعينه في نظرها، أو بأذنه في سمعها، وهو غافل معرض عن الإنسان الفاعل بذلك في الحقيقة فهو غافل مغفل)[1].

والمحصل أن الإخلاص في الدعاء لله سبحانه لا يعني عدم الاستعانة بالأسباب الطبيعية، بل الإخلاص لله سبحانه هو أن يكون الله حاضراً في جميع تفاصيل حياتنا والاعتقاد بأنه هو خالق الأسباب ومسخرها وليس لها من الاستقلال في التأثير شيئاً، بعبارة أخرى أن فلسفة الدعاء وجوهره هو أن يطلب الإنسان الحضور الإلهي في جميع مستويات وجوده وجميع حالاته ومواقفه، والله سبحانه يستجيب لهذا الطلب والدعوة قطعاً لأنه

---

١ - الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٤١.

وعد بالإستجابة ولا يمكن أن تتخلف استجابته ما دامت الدعوة مستوفية لشروطها التي ذكرناها فيما سبق من البحث.

• تعميق معنى استجابة الدعاء

ذكرنا في البحث السابق أن عدم استجابة الدعاء في أغلب الأحيان ترجع إلى عدم توفر شروط الدعوة الحقيقية، لكننا في هذا البحث نحاول أن نوضّح عدم استجابة الدعاء ببيان آخر يعتبر من الناحية المنهجية تعميقاً معنوياً لموضوع استجابة الدعاء.

يقول بعض أهل المعرفة الإلهية أن الداعي حتى لو كان مخلصاً لله في دعائه فإن كلمة (يا الله) الصادرة من الداعي هي عين (لبيك) الصادرة من الله عز وجل، بعبارة أخرى أن نفس قولنا (يا الله) هو في حقيقته وجوهره استجابة منه سبحانه لنا، ضرورة أن الإنسان الداعي عندما يقول: (يا الله) ونسأله: من

أين لك الحول والقوة والإدراك الذي تدعو به الله عز وجل؟ والجواب: أن الله سبحانه هو الذي منحنا القوة والقدرة والإدراك لكي ندعوه، ولا يوجد هناك إنسان مؤمن يقول: أنا أدعو الله بقوتي وإدراكي بشكل مستقل.. بمعنى أن الدعاء الحقيقي يتحد فيه الداعي والمدعو وليس هناك إثنينية بينهما، بل لا يوجد إلا الله سبحانه وحوله وقوته، وعليه فليس من الصحيح أن نقول: أننا ندعو الله كثيراً ولا يستجيب لنا، ونحسب أنفسنا أشياءً مستقلة في وجودها عن الله سبحانه، فقولنا: يا الله، هو بعينه، استجابة الله لنا.. مع الأخذ بنظر الاعتبار نفي جميع المعاني السلبية عن ذات الواجب سبحانه وتعالى.

يقول جلال الدين الرومي في المثنوي:

- كان أحدهم يهتف (يا الله) ذات ليلة، حتى يحلّي شفتيه بذكره.

-فقال له الشيطان: آخر الأمر أيها الثرثار.. أين (لبيك)

لكل هذا التضرع بـ (يا الله)؟

- إنه لا يتأتى جواب من أمام العرش، وأنت لا زلت تكرر (يا الله) بوجه ملحاح؟

- فانكسر قلبه وطأطأ رأسه، فرأى في منامه الخضر يتمشى في الخضرة.

- فقال له: إنتبه!! كيف انصرفت عن الذكر، وكيف ندمت على دعائك؟

- فقال: لا يأتي جواب بـ (لبيكم) ومن هنا أخاف أن أكون مردوداً عن الباب.

- قال الخضر: إن (الله) منك هي نفسها (لبيك) منا! وتضرعك وألمك وحرقتك هي رسولنا إليك! ألست أنا الذي أدخلتك في هذا الأمر؟ ألست أنا الذي جعلتك مشغولاً بالذكر[1]؟

---

١ - مثنوي، مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة وشرح وتقديم: د. ابراهيم الدسوقي شتا، ج٣، ص٤١.

ثم يستمر جلال الدين الرومي في وصف العلاقة بين الإنسان الداعي والله المدعو بصورة رائعة عظيمة، حيث يقول أن الله سبحانه يريد من الإنسان حصول حالة الحرقة والألم القلبي، لأن عامة الناس لا يذكرون الله سبحانه في وقت الرخاء والسراء.. وإنما عندما تحصل لهم الشدة وتنتابهم حالة الحرقة والألم القلبي سيذكرون الله عز اسمه! ونفهم من ذلك ان حالة الحرقة والألم هي من نعم الله على الإنسان لأنها السبب في تذكيره بالله سبحانه. ويقرر الرومي هذا المعنى من خلال التصوير الآتي:

- لقد وهب فرعون مئات من الأملاك والأموال، بحيث ادعى العز والجلال.

-لكنه لم يَشكُ طوال حياته صداعاً! حتى لا يتضرع أمام الله!

- لقد أعطاه الله تلك الدنيا بأسرها، ولم يهبه الحق الألم والتعب والهموم.

- فالألم أفضل من ملك الدنيا، وذلك حتى تدعو الله في السّر!

– ودعاء الله بلا ألم من موت القلب، ودعاؤه بألم من عبودية القلب![1].

فاستجابة الله سبحانه لنا في عمقها ليس هي بتلبية وتحقيق مطالبنا التي نذكرها في الدعاء وإنما الاستجابة الحقيقية تحصل بذكرنا لله سبحانه في لحظة الشدة والحرقة والألم، ونفس ذكرنا لله سبحانه هو ذكر الله لنا كما ذكرنا ذلك في بحث الذكر الإلهي في بيان قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[2].

فهذا المعنى العميق هو الذي يؤسسه العرفاء في باب الدعاء، أي أن الإنسان عندما يدعو الله سبحانه فإن نفس قوله (يا الله) هو استجابة من الله عز وجل لدعاء الداعي، لأن الآخرين الذين لا يدعون محرومون من نعمة هذه الإستجابة

---

١ – مثنوي، مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة وشرح وتقديم: د. ابراهيم الدسوقي شتا، ج٣، ص٤٢.

٢ – البقرة: ١٥٢.

لأنهم راكنون ومطمئنون للأسباب الطبيعية فلا تصدر منهم كلمة (يا الله)! وليس لهم حالات من الألم والحرقة لكي تذكّرهم بالله سبحانه. بمعنى أن لحظات الألم والحرقة التي يعيشها الإنسان عند الدعاء تجعله أكثر قرباً لله عز وجل وأكثر ذكراً له سبحانه.

ولتقريب هذا المعنى من الوجدان نذكر المثال التالي:

إن الأب بمقتضى مسؤوليته الإنسانية والشرعية يوفّر لأبنائه جميع ما يحتاجونه في الحياة مادياً ومعنوياً.. وإذا سار الأمر على هذه الحال من تلبية مطالب الأبناء بشكل تام فإن الأبناء في أغلب الأحيان ينسون الأب ودوره الكبير والمؤثر في استقرار حياتهم وسيرها على أكمل وجه، لأنهم سيطمئنون للأسباب ويركنون إليها ويأتيهم عيشهم رغداً! وفي مثل هذه الحال كيف نذكرهم بأبيهم الذي هو السبب الحقيقي في حياتهم الرغيدة؟!

إن أحد أهم الطرق لتحقيق ذلك هو أن يقوم الأب بنفسه بحرمانهم من بعض الأمور التي كان يوفرها لهم.. فإذا وقعوا في

الحاجة والشدة والحرج تذكروا أباهم وقالوا: يا أبانا نجّنا وأسعفنا من هذه الشدة والحاجة! فقولهم (يا أبانا...) هي نفسها استجابة من أبيهم لأنه هو الذي أرادها أن تصدر منهم.. وهو الذي أراد أن تحصل عندهم حالة الألم والحرقة لكي يتذكرونه.. لأن جميع كمالاتهم – حسب المثال- التي هم فيها إنما تأتيهم من أبيهم.. فلا بد أن يذكروه ذكراً كثيراً ولا يغفلون وينسون تأثيره الحقيقي في مسيرة حياتهم.. وهذا هو المعنى الذي نقصده في علاقة الإنسان بالله حين الدعاء.. فالله سبحانه يريد من الإنسان أن يكون ملتفتاً دائماً لمصدر كماله وسبب وجوده.. ومن هنا قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا**﴾[1] وقال: ﴿**وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**﴾[2] لأن النسيان والغفلة من أهم أسباب هلاك الإنسان في هذا العالم..

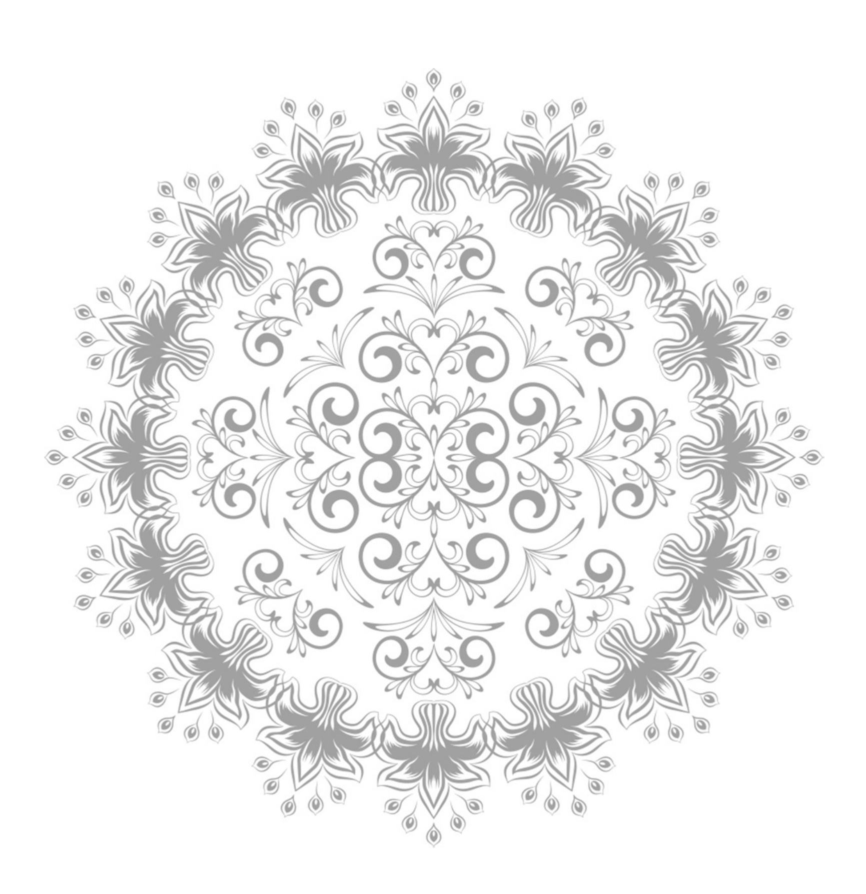
---

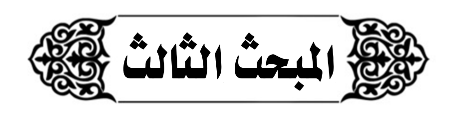
١ - الأحزاب: ٤١-٤٢.

٢ - الكهف:٢٤.

المبحث الثالث

- الفكرة الثانية (الحياة الإلهية)
- الحياة الحقيقية هي الاتصال بالحي الحقيقي
- فروا إلى الله
- الحياة الحقيقية يستحيل طرو الموت عليها
- عظمة الرسالة الخاتمة في إحياء الموتى
- القرآن كتاب يدعو إلى الحياة
- إن الله يحول بين المرء وقلبه





المبحث الثالث

● **الفكرة الثانية (الحياة الإلهية)**

ذكرنا في مستهل هذا البحث أن قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] يتضمن فكرتين رئيسيتين، أحدهما فكرة الدعوة الإلهية وقد تقدم الكلام عنها، والأخرى فكرة الحياة الإلهية المستفادة من قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.. وتعتبر هذه الفكرة هي الأهم في هذا النداء القرآني.

إن الله سبحانه يدعونا إلى الحياة.. والدعوة إلى الحياة تمثل مبدئاً وقاعدة قرآنية نصت عليها آيات قرآنية إضافة إلى آية نداء الحياة التي نتكلم عنها.

---

١ - الأنفال:٢٤.

ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ

---

١ - الأنعام:١٢٢.

٢ - النحل:٩٧.

٣ - البقرة: ٢٨.

وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾[1].

في ضوء هذه الآيات القرآنية التي يدعونا الله سبحانه فيها إلى الحياة الإلهية الطيبة، ينبثق السؤال الآتي:

إذا كان الله يدعونا إلى الحياة وبهذه الخطابات المركزة فهل نحن أموات لكي توجّه لنا دعوة الحياة؟! وإذا كنا مدعوّين للحياة فما هي حقيقة هذا العالم الذي نعيش فيه ونعتقد أننا أحياء؟!

إذ لعل شخصاً يتساءل ويقول: أنا حي فما معنى أن الله يدعوني إلى الحياة؟!

فلا بد أن نعرف أولاً حقيقة هذه الحياة الدنيا لكي نعرف بعد ذلك معنى أن يدعونا الله سبحانه إلى الحياة الحقيقية التي يتحدث عنها القرآن، وهذا يعني أن هناك أنواعاً متعددة للحياة تختلف في حقيقتها وآثارها ولا بد أن نميز بين الحياة الحقيقية

---

١ - الفجر: ٢٣-٢٤.

وبين غيرها ونتيجة هذا التمييز ستتحقق استجابتنا للدعوة الإلهية، وإلا لا يمكن الإستجابة لهذه الدعوة مع الجهل بالحياة الحقيقية، إذ سيتساوى حينئذ معنى الحياة عند الإنسان ويقتنع بالحياة التي يعيشها في هذه النشأة ولا يندفع نحو الاستجابة المذكورة.

وعليه فإن الآيات القرآنية التي ذكرناها تضعنا أمام تساؤل مهم ومصيري عن معنى الحياة، ولا شك أن معنى الحياة يلعب دوراً جوهرياً في مسيرة وجود الإنسان، إذ لا يمكن أن نؤسس معرفة فلسفية ودينية بدون معرفة معنى الحياة.. ولا يمكن أن نؤسس علاقات اجتماعية بدون معرفة معنى الحياة.. ولا يمكن أن نحصل على السعادة الحقيقية بدون معرفة معنى الحياة.. ويلعب معنى الحياة دوراً مهماً أيضاً في معرفة القيم والأخلاق والفضائل والرذائل والخير والشر ووجود الله سبحانه وتعالى والحياة الأخرى بعد هذا العالم.

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره: (الحياة أنعم نعمة وأعلى

سلعة يعتقدها الموجود الحي لنفسه، كيف لا؟ وهو لا يرى وراءه إلا العدم والبطلان، وأثرها الذي هو الشعور والإرادة هو الذي ترام لأجله الحياة ويرتاح إليه الإنسان، ولا يزال يفرّ من الجهل وافتقاد حرية الإرادة والاختيار، وقد جهّز الإنسان وهو أحد الموجودات الحيّة بما يحفظ به حياته الروحية التي هي حقيقة وجوده كما جهز كل نوع من أنواع الخليقة بما يحفظ به وجوده وبقاءه.

وإذ كانت هذه الهداية الإلهية التي تسوق النوع الإنساني إلى نحو سعادته وخيره وتندبه نحو منافع وجوده هداية بحسب التكوين وفي طور الخلقة، ومن المحال أن يقع خطأ في التكوين، كان من الحتم الضروري أن يدرك الإنسان سعادة وجوده إدراكاً لا يقع فيه شك... وهذا هو الذي يصر عليه القرآن الكريم أن الإنسان لا يخفى عليه ما فيه سعادته في الحياة من علم وعمل، وأنه يدرك بفطرته ما هو حق الإعتقاد والعمل، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ

ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ـ إلى أن قال ـ ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[3].

نعم ربما أخطأ الإنسان طريق الحق في اعتقاد أو عمل وخبط في مشيئته، لكن لا لأن الفطرة الإنسانية والهداية الإلهية أوقعته في ضلالة وأوردته في تهلكة، بل لأنه أغفل عقله ونسي رشده واتبع هوى نفسه وما زينه جنود الشياطين في عينه، قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[4]

---

١ – الروم: ٣٠.

٢ – الأعلى: ٢–٣ و ٩–١١.

٣ – الشمس: ٧–١٠.

٤ – النجم: ٢٣.

فهذه الأمور التي تدعو إليها الفطرة الإنسانية من حق العلم والعمل لوازم الحياة السعيدة الإنسانية وهي الحياة الحقيقية التي بالحري أن تختص باسم الحياة، والحياة السعيدة تستتبعها كما أنها تستلزم الحياة السعيدة وتستتبعها وتعيدها إلى محلها لو ضعفت الحياة في محلها بورود ما يضادها ويبطل رشد فعلها.

فإذا انحرف الإنسان عن سوي الصراط الذي تهديه إليه الفطرة الإنسانية وتسوقه إليه الهداية الإلهية، فقد فَقَدَ لوازم الحياة السعيدة من العلم النافع والعمل الصالح، ولحق بحلول الجهل وفساد الإرادة الحرة والعمل النافع بالأموات ولا يحييه إلا علم حق وعمل حق.. وهذا هو الذي تشير إليه الآية التي نبحث عنها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾)[1].

إذن يعتبر الوقوف على معنى الحياة من الناحية الوجودية

١ - الميزان في تفسير القرآن: ج٩، ص٤٢-٤٣.

والقرآنية على هذه الدرجة من الأهمية ولذا قلنا أن (نداء الحياة) يعتبر من غرر النداءات القرآنية التي تتصدى للجواب عن معنى الحياة وأهميتها في مسيرة وجود الإنسان، ومن الواضح أن الذي يظفر بالإجابة الصحيحة لسؤال الحياة سوف يفوز بالطمأنينة المطلقة والسعادة التامة لأن جميع كمالات الإنسان مترتبة على حقيقة الحياة.. والقرآن يقرر: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وقلنا في مقدمة هذا البحث أن القرآن يتصدى لجواب السؤال عن الحياة بطريقة رائعة إذ يوجّه إلينا دعوة الحياة مباشرة أي أنه يفترضنا أمواتاً ويدعونا للحياة.. وكأن القرآن يريد أن يثير فينا نوعاً من الصدمة والوعي لأن الإنسان مطمئن لحياته الدنيا التي يعيشها وهذا الاطمئنان يولد له شعوراً خاطئاً بأن الحياة الدنيا هي الحياة الحقيقية والنهائية له.. فيأتي القرآن من خلال هذا النداء الإلهي لينقل الإنسان إلى معنى أعمق للحياة.. ولا شك أن كل مخلوق حي يبحث عن حياته فطرياً ولا يمكنه أن يبحث عن الموت.. وأما الذي يموت في سبيل الله فليس

طالباً للموت بالحقيقة وإنما انتقل إلى حياة أرقى وأكمل من حياته السابقة.

● الحياة الحقيقية هي الاتصال بالحي الحقيقي

استناداً إلى ما تقدم فإن من أراد أن يكون حياً بالحياة الحقيقية فلا بدّ له أن يتصل بحيٍ حقيقي.. وليس ذلك إلا الله سبحانه وتعالى لأنه هو الكمال المطلق.. والنور المطلق.. والخير المطلق.. والحي المطلق.. فهو الذي يهبنا الحياة والكمال والنور والخير ويطرد عنّا الموت والظلمة والنقص.. نعم.. وإن كان كنه الحياة مجهولاً ويعدُّ سراً من أسرار هذا الوجود اللامتناهي ولم تستطع العلوم الفلسفية والطبيعية الحديثة أن تقف على جوهر وكنه الحياة.. لكن آثار الحياة يمكن إدراكها ومعرفتها من الشعور والإرادة والعلم والتكامل.. وبذلك يثبت أيضاً أن الإنقطاع عن الحي الحقيقي والاكتفاء بحياة غير حقيقية يمثل موتاً حقيقياً، كالذين يركنون إلى الحياة الدنيا بشكل مطلق

وينسون الله سبحانه.. فإن ذلك انقطاع عن دائرة الحياة الحقيقية.. ولذلك يعبّر عنهم القرآن بأنهم أموات بالرغم من أنهم يأكلون ويشربون ويتكلمون ويتمتعون بملذات الدنيا.. والإنقطاع عن دائرة الحي الحقيقي يؤدي إلى أن ينطفئ نور الحياة الحقيقية في وجود الإنسان ويندثر في مستويات متدنية من الوجود، أي أنه يهلك حقيقة، لأن الحياة الحقيقية هي أصل كل كمال، لذا فإن القرآن الكريم ومن خلال هذا النداء الإلهي كتاب يدعو إلى الحياة الحقيقية وهي الاتصال الحقيقي بالله عز وجل.. والحياة عند الله سبحانه لا ظلمانية ولا نقص ولا شقاء فيها لأنه مصدر الكمال والنور المطلق.. ومن هنا فإنه لا حياة حقيقية للإنسان إلا بالاتصال بدائرة الحي المطلق التي تمثل الكمال التام، وكل معصية أو ذنب يصدر من الإنسان يمثل انقطاعاً عن تلك الدائرة.. بل نستطيع القول: إن الحياة الحقيقية أو ما يسمى حياة حقيقية هو البقاء أو الفناء في الحياة الإلهية، فيبقى الإنسان حياً بالحياة الإلهية، وأي انقطاع عن هذه الحياة تكون نتيجته الموت

والهلاك الحقيقي، لذا يؤكد القرآن على الدعوة للحياة الإلهية فيقول: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ ولا تستجيبوا لما يميتكم ويهلككم.. فالسيئات والمعاصي نقاط سوداء مظلمة تسلب نور الحياة من الإنسان، وبتعبير دقيق: كلما ازدادت مساحة السيئات والمعاصي ومخالفة الله سبحانه ازدادت مساحة الموت والجفاء في وجود الإنسان، ولذلك نجد أن المخلوقات الكاملة أو الناس الكُمّل كالأنبياء والمرسلين والأئمة المعصومين والأولياء الصالحين عليهم السلام ولأنهم يمثلون هذه الدرجة العليا من الاتصال بالله سبحانه ويحيون بالحياة الحقيقية نجدهم أنهم يحيون غيرهم وليس فقط هم أحياء بأنفسهم بالإيمان والتوحيد ومعرفة الله عز وجل بل يكونون طريقاً وسبباً لإحياء غيرهم من الخلق، ولذلك يكونون حجة عليهم ويبعثهم الله برسالته التي تحيي الناس أجمعين، ومن هنا قالت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ أي أن الرسالة أو النداء أو الخطاب الذي

يحمله الرسول الأكرم ﷺ هو في حقيقته خطاب ورسالة حياة، فهناك ما نسميه انعكاساً للحياة الإلهية في حياة ووجود الإنسان المؤمن فيحيي غيره إذا أراد ذلك الغير الإتصال به.. فمثلاً حينما نقول: أن الله سبحانه رحمن رحيم.. فهذا يعني أن الإنسان الحي بالحياة الإلهية رحيماً أيضاً، أي تتجلى الرحمة الإلهية في جميع مستويات حياته، وعليه فعندما تغيب الرحمة واللطف والتسامح والإحسان والأمانة والرأفة والصدق والأخلاق من حياتنا فاعلموا أن حياتنا تتجه نحو الموت والهلاك لأننا بهذه الأعمال ننقطع شيئاً فشيئاً عن مصدر الحياة الحقيقية، لذا قلنا أن القرآن الكريم في هذا النداء يعطينا الجواب الحاسم لمعنى الحياة وهو اتصالنا بمنبع الحياة وهو الله عز اسمه الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا فيقول: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ﴾! أي إتّجهوا في مسيرة حياتكم نحو الله سبحانه لأن هذا الإتجاه هو الذي يحفظ لكم حياتكم التي تبحثون عن استمرارها وديمومتها.. إذ من المستحيل أن يبحث الإنسان ويتجه نحو موته وهلاكه، بل

الفطرة حاكمة بأن الإنسان دائماً يبحث عن كماله الذي يحفظ به أصل حياته وشؤونها.. لكننا في الحقيقة نخطأ في تحديد مصداق الكمال.. والجميع يبحثون عن استمرار حياتهم، ولا يوجد إنسان بفطرته يبحث عن موته، حتى في المذاهب المادية في الفلسفة الغربية وغيرها نراهم يعلنون بين فترة وأخرى بأنهم سيتوصلون لعلاج أو دواء لإطالة العمر أو اكتشاف هرمون إيقاف أعراض الشيخوخة، وهذا معناه أن الإنسان متمسك بالحياة ولا يريد أن يموت ويهلك، لكن الخطأ أنهم يعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هي مصداق الحياة الحقيقية ولذلك لا بدّ من التمسك بها وعدم فقدانها، وأن الخروج منها هو موت وهلاك حقيقي ليس بعده حياة! لكن كما هو الصحيح فإن اتجاه الفلسفة الإلهية يقرر أن الإنتقال من هذه النشأة ليس موتاً حقيقياً وإنما هو انتقال إلى حياة أخرى أكمل وأعظم وأرقى من هذه الحياة الدنيا.. من هنا يأتي القرآن الكريم ليقرر أن مصداق الحياة الحقيقية هو الاتصال بالله سبحانه وتعالى الحي القيّوم ويبين لنا

من جهة أخرى حقيقة ما نسميه الحياة الدنيا فيقول: أنها لعبٌ ولهوٌ وتفاخرٌ وتكاثرٌ وأنها دار الغرور! وأن الدار الآخرة لهي الحيوان!

في هذا المجال أيضاً يقرر العلامة الطباطبائي قدس سره:

وللحياة بحسب ما يراه القرآن الكريم معنى آخر أدق مما نراه بحسب النظر السطحي الساذج، فإنا إنما نعرف من الحياة في بادئ النظر ما يعيش به الإنسان في نشأته الدنيوية إلى أن يحل به الموت، وهي التي تصاحب الشعور والفعل الإرادي، ويوجد مثلها أو ما يقرب منها في غير الإنسان أيضاً من سائر الأنواع الحيوانية، لكن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]، ويفيد ذلك أن الإنسان متمتع بهذه الحياة غير مشتغل إلا بالأوهام، وأنه مشغول بها عمّا هو أهم وأوجب من غايات

١ - العنكبوت: ٦٤.

وجوده وأغراض روحه فهو في حجاب مضروب عليه يفصل بينه وبين حقيقة ما يطلبه ويبتغيه من الحياة.

وهذا هو الذي يشير إليه قوله تعالى وهو من خطابات يوم القيامة: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1])[2].

بعبارة أخرى أنك أيها الإنسان إذا أردت الحياة الحقيقية فالله سبحانه هو الذي يوصلك إليها ويعلمك من جهة أخرى أن لا تغترّ بالحياة الدنيا، لأنها ليست الحياة الحقيقية والنهائية، فإن الطفل – مثلاً- إذا أردت أن تجلب له السعادة والفرح سوف تجلب له مجموعة من الألعاب والحلوى ويعتقد بذلك أنه قد ملك الدنيا!! ولكن الحقيقة ليست كذلك كما هو معلوم، وإذا قلت له: أنك عندما تتقدم في العمر فهناك حياة أخرى غير حياة

---

١ – ق: ٢٢.

٢ – الميزان في تفسير القرآن: ج٩، ص٤٤.

الطفولة وهي الحياة العقلية والزوجية والحياة العلمية وأنك ستحصل على شهادات عليا في مجالات العلم، وعندما تنظر إلى حياتك السابقة عندما كنت طفلاً سوف تسخر منها ولا تصدقها!! إذا قلت له ذلك فإنه لا يصدقك بسهولة لأنه مقتنع تماماً بحياته التي هو عليها في سن الطفولة، وهذا هو حال الإنسان في الحياة الدنيا عندما يغترُّ بها ويركن إليها في حين أنه لم يُخلق لأجل البقاء فيها وهناك حياة أكمل منها سائر إليها لا محالة، لذلك نرى شدة الخطاب القرآني وتركيزه على وصف الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو ودار غرور.

(فللإنسان حياة أخرى أعلى كعباً وأغلى قيمةً من هذه الحياة الدنيوية التي يعدّها الله سبحانه لعباً ولهواً، وهى الحياة الأخروية التي سينكشف عن وجهها الغطاء، وهى الحياة التي لا يشوبها اللعب واللهو، ولا يدانيها اللغو والتأثيم، لا يسير فيها الانسان الا بنور الايمان وروح العبودية، قال تعالى: ﴿**أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ**

﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[١] وقال تعالى: **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾**[٢].

فهذه حياة أخرى أرفع قدراً وأعلى منزلةً من الحياة الدنيوية العامة التي ربما شارك فيها الحيوان العجم الانسان.

ويظهر من أمثال قوله تعالى: **﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾**[٣] وقوله: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾**[٤]، أن هناك حياة أخرى فوق هاتين الحياتين المذكورتين.

وبالجملة فللإنسان حياة حقيقية أشرف وأكمل من حياته الدينية الدنيوية يتلبّس بها إذا تم استعداده بالتحلّي بحلية الدين

---

١ – المجادلة:٢٢.

٢ – الأنعام:١٢٢.

٣ – البقرة:٢٥٣.

٤ – الشورى:٥٢.

والدخول في زمرة الأولياء الصالحين كما تلبّس بالحياة الدنيوية حين تم استعداده للتلبّس بها وهو جنين إنساني.

وعلى ذلك ينطبق قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾[١] فالتلبُّس بما تندب إليه الدعوة الحقّة من الاسلام يجر إلى الانسان هذه الحياة الحقيقية كما أن هذه الحياة منبع ينبع منه الإسلام وينشأ منه العلم النافع والعمل الصالح، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَـٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[٢])[٣].

---

١ - الأنفال: ٢٤.

٢ - النحل: ٩٧.

٣ - الميزان في تفسير القرآن: ج٩، ص٤٤-٤٥.

● فروا إلى الله

استناداً إلى ما تقدم في معنى الحياة الحقيقية توجد التفاتة أخرى تجدر الإشارة إليها في هذا الموضوع، وهي قضية الفرار إلى الله، فقد جاء هذا التعبير في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[١].

ولا يخفى أن معنى الفرار هو الهروب بشدة وليس الهروب الطبيعي، كما يفرُّ الإنسان ويهرب من خطر شديد يداهمه، فالآية الكريمة تصور أن هناك أعداء للإنسان المؤمن يريدون به الهلاك، وأن النجاة من هؤلاء الأعداء ليس إلا بالفرار إلى الله سبحانه، فهناك شيءٌ نفرُّ إليه وهو الله، وهناك شيءٌ نفرُّ منه، وهي النفس الأمارة بالسوء والشهوات والأهواء والشيطان.. أي أن مسيرة النجاة والتكامل في هذا الوجود لا بد أن تكون متوجّهة نحو الله

---

١ - الذاريات: ٥٠.

سبحانه وحده لا شريك له، وهذه الخطابات القرآنية تجعل مركز اتجاه مسيرة الإنسان الشرعية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية والوجودية هو الله عز وجل وليس العكس كما يفعل المذنبون وأصحاب المعاصي فإنهم يفرّون من الله سبحانه ويتّجهون نحو شهواتهم وأهوائهم!! وعندما يأتيهم داعي الله تراهم من أثقل الناس لاستجابته بالرغم من أن الله سبحانه يقول: ﴿ **فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾!!

وفي هذا المجال يمكن أن نذكر بعض الأمثلة القرآنية في الفرار نحو الله سبحانه والاتجاه نحو الحياة الحقيقية.

قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ** ﴾[1].

وقال: ﴿ **فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ**

١ - الصافات:٩٩.

لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾[1].

إن هذه الآيات الكريمة تصور مشهداً رائعاً وعظيماً من مشاهد التوحيد عند الأنبياء والمرسلين، إذ أنها ترسم صورة عظيمة للتوجّه نحو الله سبحانه وتعالى على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام.

فإنه سلام الله عليه يطلب الهداية من خالقه.. ويطلب منه الإطعام والإسقاء.. ثم يطلب منه الشفاء.. ثم يثبت أنه هو المميت والمحيي لا أحد غيره.. ثم يطلب منه المغفرة يوم الدين.. فهذه الحالات التي ابتدأت من الخلق ثم الإطعام ثم المرض والشفاء.. ثم الإماتة والإحياء.. ثم المغفرة يوم الحساب.. تمثل حياته الكاملة من أول خلقته إلى يوم القيامة أي أنه متوجّه نحو الله سبحانه في جميع مراحل وجوده.. وهو من أعظم مشاهد التوحيد الحقيقي.

---

١ - الشعراء: ٧٧-٨٢.

وفي مشهد آخر من مشاهد التوحيد يقول تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1].

فالهجرة الحقيقية لا بد أن تكون نحو الله سبحانه حيث يقول سلام الله عليه: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ .. وعلى لسان إبراهيم عليه السلام قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ .. فيا أيها الإنسان الباحث عن الحياة! إستجب لله.. هاجر إلى الله.. إذهب إلى الله.. فِرَّ إلى الله.. ثق بالله.. توكل على الله.. إستعن بالله.. فأينما تولوا وجوهكم فثمّ وجه الله!! وقد قال أهل المعرفة إن الفرار هو الهرب من الغير إلى الحق.. أو الهرب مما يبعد عن الحق تعالى إلى ما يقرّب إليه عز اسمه.

---

١ - العنكبوت: ٢٦.

● الحياة الحقيقية يستحيل طروّ الموت عليها

قلنا أن الحياة هي المبدأ الحقيقي لجميع الكمالات التي يحصل عليها الشيء الحي، وأن من أراد أن يصل إلى كماله اللازم لا بد أن يكون حياً متصلاً بحي حقيقي، والحي الحقيقي هو الله سبحانه الذي ثبتت له الحياة بالذات، وهي بمعناها الدقيق منحصرة به عز وجل، فهو الحي الذي لا إله إلا هو عليه التوكُّل لأنه لا يموت.

في هذا المجال يقول السيد الطباطبائي قدس سره في تفسير قوله تعالى: ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ** .. ﴾[1] من آية الكرسي: (وأما إسم (الحي) فمعناه ذو الحياة الثابتة على وزن سائر الصفات المشبهة في دلالتها على الدوام والثبات.

والناس في بادئ مطالعتهم لحال الموجودات وجدوها على قسمين:

---

١ – البقرة: ٢٥٥.

قسم منها: لا يختلف حاله عند الحس ما دام وجوده ثابتاً كالأحجار وسائر الجمادات، وقسم منها: ربما تغيرت حاله وتعطلت قواه وأفعاله مع بقاء وجودها على ما كان عليه عند الحس، وذلك كالإنسان وسائر أقسام الحيوان والنبات، فإنا ربما نجدها تعطلت قواها ومشاعرها وأفعالها ثم يطرأ عليها الفساد تدريجاً، وبذلك أذعن الإنسان بأن هناك وراء الحواس أمراً آخر هو المبدأ للإحساسات والإدراكات العلمية والأفعال المبتنية على العلم والإرادة وهو المسمى بالحياة ويسمى بطلانه بالموت، فالحياة نحو وجود يترشّح عنه العلم والقدرة.

وقد ذكر الله سبحانه هذه الحياة في كلامه ذكر تقرير لها، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ

١ – الحديد : ١٧.

أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[٣]، فهذه الآيات تشمل أقسام الحي من الانسان والحيوان والنبات.

وكذلك القول في أقسام الحياة، قال تعالى: ﴿**وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا**﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿**رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ**﴾[٥]، والإحيائان المذكوران يشتملان على حياتين، إحداهما: الحياة البرزخية، والثانية: الحياة الآخرة، فللحياة أقسام كما للحي أقسام.

والله سبحانه مع ما يقرر هذه الحياة الدنيا يعدها في مواضع

---

١ - فصلت : ٣٩.

٢ - فاطر : ٢٢.

٣ - الأنبياء : ٣٠.

٤ - يونس : ٧.

٥ - المؤمن : ١١.

كثيرة من كلامه شيئاً رديئاً هيناً لا يعبأ بشأنه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٥].

فوصف الحياة الدنيا بهذه الأوصاف، فعدّها متاعاً والمتاع ما يقصد لغيره، وعدّها عرضاً والعرض ما يعترض ثم يزول، وعدّها زينة والزينة هو الجمال الذي يضم على الشيء ليقصد الشيء لأجله فيقع غير ما قصد، ويقصد غير ما وقع، وعدّها لهواً

---

١ – الرعد : ٢٦.

٢ – النساء : ٩٤.

٣ – الكهف : ٢٨.

٤ – الانعام : ٣٢.

٥ – الحديد : ٢٠.

واللهو ما يلهيك ويشغلك بنفسه عما يهمك، وعدّها لعباً واللعب هو الفعل الذي يصدر لغاية خيالية لا حقيقية، وعدّها متاع الغرور وهو ما يغرّ به الانسان.

ويفسر جميع هذه الآيات ويوضحها قوله تعالى: ﴿**وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ**﴾[1]، يبين أن الحياة الدنيا إنما تسلب عنها حقيقة الحياة أي كمالها في مقابل ما تثبت للحياة الآخرة حقيقة الحياة وكمالها، وهي الحياة التي لا موت بعدها، قال تعالى: ﴿**ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾[3]، فلهم في حياتهم الآخرة أن لا يعتريهم الموت، ولا يعترضهم

---

١ - العنكبوت : ٦٤.

٢ - الدخان: ٥٥-٥٦.

٣ - ق: ٣٥.

نقص في العيش وتنغُّص، لكن الأول من الوصفين أعني الأمن هو الخاصة الحقيقية للحياة الضرورية له.

فالحياة الأخروية هي الحياة بحسب الحقيقة لعدم إمكان طروّ الموت عليها بخلاف الحياة الدنيا، لكن الله سبحانه مع ذلك أفاد في آيات أخر كثيرة أنه تعالى هو المفيض للحياة الأخروية الحقيقية والمحيي للإنسان في الآخرة، وبيده تعالى أزمّة الأمور، فأفاد ذلك أن الحياة الأخروية أيضاً مملوكة لا مالكة ومسخّرة لا مطلقة أعني أنها إنما ملكت خاصتها المذكورة بالله لا بنفسها.

ومن هنا يظهر أن الحياة الحقيقية يجب أن تكون بحيث يستحيل طروّ الموت عليها لذاتها ولا يتصور ذلك إلا بكون الحياة عين ذات الحي غير عارضة لها ولا طارئة عليها بتمليك الغير وإفاضته، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾[1]، وعلى هذا فالحياة الحقيقية هي الحياة الواجبة، وهي كون وجوده

١ - الفرقان: ٥٨.

بحيث يعلم ويقدر بالذات)[1].

وفي السياق ذاته يقول السيد السبزواري قدس سره:

(فتكون حياته جلت عظمته حياة حقيقية كاملة واجبة فيه عز وجل، بريئة من النقص، يستحيل عليها الموت والفناء، وهي متقومة بالعلم والقدرة، ولها مراتب غير متناهية، لانتهائها إلى ما يكون عين ذات الله جلت عظمته، ولا مبدأ لأولها ولا منتهى لآخرها، لأنه أزلي أبدي بذاته، وكذلك يكون ما هو عين ذاته، أي الحياة والعلم والقدرة.

وهذه الحياة منحصرة في الله تعالى، وليست حياته حياة فردية شخصية، بل هي حياة كلية حقيقية، هي مبدأ كل حي، من حياة النبات والحيوان والإنسان والروحانيين، والأرواح الشامخة والعقول المجردة، بل وجميع ما سواه حتى الجمادات فإن لها حياة خاصة لا ندركها، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا**

---

١ - الميزان في تفسير القرآن: ج٢، ص٣٣٣-٣٣٤.

﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2]، فإن جميعها مستمدة من تلك الحقيقة الواحدة البسيطة، فتكون حياته عز وجل منشأ الأرواح وأصلها، وبدوامها تدوم، فهي منشأ الخيرات ومنبع البركات، وهي الغيث المستغيث، والغياث المستغاث في عالمي الأمر والخلق اللذين يجمعان جميع الممكنات)[3].

وفي شرح الأسماء الحسنى قال الشيخ صدر الدين القونوي قدس سره عند شرح الإسم (المحيي): (إعلم إن سر الحياة الإلهية سرى في الموجودات فحُيِّيَتْ بحياة الحق، فمنها ما ظهرت حياتها لأبصار الناظرين، ومنها ما لم يظهر في الدنيا لأبصار العامة إلا للأنبياء وبعض الأولياء الذين كشف لهم عن سريان الحياة في كل شيء، ولشمول هذا السريان نطقت كلها مُسَبِّحَةً

---

١ - الإسراء: ٤٤.

٢ - فصلت: ٢١.

٣ - مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ج٢، ص٢٥٧.

بالثناء على موجدها، ولا يسبح إلا حي، لكن وقعت الدعوى فيها حتى زعم كل حي أن حياته له، فلما فـزِعَ رُفـعَ عن قلبه حجاب الغفلة والجهل، شاهد الأمر على خلاف ما اعتقد، فعلم أن حياة الكل فيض من حياة الحق وهو الحق).

ثم يقول في شرحه للإسم (المميت): (فإن الموت عند أهل الشهود ليس إزالة الحياة في نفس الأمر كما يتوهم المحجوبون، فالشهيد حي بالنص الإلهي، والذي هو عند المحجوب ميت! فالموت عبارة عن انتقال العين من موطن الدنيا إلى موطن الآخرة... والميت عند نفسه حي وإن انعدم تصرفه بالقول والحركة.. وإنما الميت الحقيقي من لم يصحبه شهود حياة الحق وسريان فيضه، فينسب الحياة إلى نفسه، فإن الحق قد مات في حق هذا المحجوب، فهو الميت على الحقيقة، فالمحجوب الجاهل ميت في الحقيقة، والميت حيّ عند المحقق!)[1].

إذن، فالحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة هي حياة الله

---

١ - شرح الأسماء الحسنى، الشيخ صدر الدين القونوي، تحقيق: الشيخ قاسم الطهراني، ص٣١٣و ص٣١٥.

سبحانه وتعالى، ولكي يكون الإنسان حياً حقيقة فلا بد أن تكون حياته إلهية، وهي التي يعبر عنها القرآن بـ (الحياة الطيبة) المترتبة على الإيمان والعمل الصالح.. والدعوة الإلهية بشكل عام هي دعوة لهذا النوع من الحياة.. ولا يمكن للإنسان أن يفرّط بحياته الحقيقية، ولا طريق للحصول عليها إلا بالاستجابة للنداء الإلهي ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] ونعني بالاستجابة اتباع جميع المضامين العقائدية والأخلاقية والشرعية للدعوة الإلهية التي تضمن له الوصول إلى كمال الحياة أعني الحياة الطيبة الإلهية.

قال السيد الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[2]: (الإحياء إلقاء الحياة في الشيء وإفاضتها عليه، فالجملة بلفظها دالة على أن الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل

---

١ - الأنفال: ٢٤.

٢ - النحل: ٩٧.

صالحاً بحياة جديدة غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة، وليس المراد به تغيير صفة الحياة فيه وتبديل الخبيثة من الطيبة مع بقاء أصل الحياة على ما كانت عليه، ولو كان كذلك لقيل: فلنطيبنَّ حياته.

فالآية نظير قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[1] وتفيد ما تفيده من تكوين حياة جديدة، وليس من التسمية المجازية لأن الآيات المتعرضة لهذا الشأن ترتب عليه آثار الحياة الحقيقية كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[2] وكقوله في آية الأنعام المنقولة آنفاً: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فإن المراد بهذا النور العلم الذي يهتدى به الإنسان إلى الحق في الاعتقاد والعمل قطعاً.

١ – الانعام: ١٢٢.

٢ – المجادلة: ٢٢.

وكما أن له من العلم والإدراك ما ليس لغيره كذلك له من موهبة القدرة على إحياء الحق وإماطة الباطل ما ليس لغيره، وقد قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وهذا العلم والقدرة الحديثان يمهّدان لـه أن يـرى الأشـياء على ما هي عليه فيقسمها قسمين: حق باقٍ وباطل فانٍ، فيُعـرض بقلبه عن الباطل الفاني الذي هو الحيـاة الـدنيا بزخارفهـا الغـارّة الفتّانة ويعتز بعزة الله فلا يستذله الشيطان بوساوسه ولا الـنفس بأهوائها وهوسـاتها ولا الـدنيا بزهرتهـا لمـا يشـاهد مـن بطـلان أمتعتها وفناء نعمتها.

ويتعلق قلبه بربه الحق الذي هو يحق كل حـق بكلماتـه، فـلا يريد إلا وجهه، ولا يحب إلا قربه، ولا يخاف إلا سخطه وبعـده، يرى لنفسه حياة طاهرة دائمة مخلدة لا يدبّر أمرها إلا ربه الغفـور الودود، ولا يواجهها في طول مسيرها إلا الحسـن الجميـل، فقـد

---

١ - الروم: ٤٧.

أحسن كل شيء خلقه، ولا قبيح إلا ما قبحه الله من معصيته.

فهذا الإنسان يجد في نفسه من البهاء والكمال والقوة والعزة واللذة والسرور ما لا يقدر بقدر، وكيف لا؟ وهو مستغرق في حياة دائمة لا زوال لها، ونعمة باقية لا نفاد لها ولا ألم فيها ولا كدورة تكدرها، وخير وسعادة لا شقاء معها.

فهذه آثار حيوية لا تترتب إلا على حياة حقيقية غير مجازية، وقد رتبها الله سبحانه على هذه الحياة التي يذكرها ويخصها بالذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهي حياة حقيقية جديدة يفيضها الله سبحانه عليهم.

وليست هذه الحياة الجديدة المختصة بمنفصلة عن الحياة القديمة المشتركة وان كانت غيرها، فإنما الاختلاف بالمراتب لا بالعدد، فلا يتعدّد بها الإنسان، كما أن الروح القدسية التي يذكرها الله سبحانه للأنبياء لا توجب لهم إلا ارتفاع الدرجة دون تعدد الشخصية.

هذا ما يعطيه التدبُّر في الآية الكريمة وهو حقيقة قرآنية، وبه

يظهر وجه توصيفها بـ(الطيب) في قوله: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ كأنها حياة خالصة لا خبث فيها يفسدها)[1].

● عظمة الرسالة الخاتمة في إحياء الموتى

بناء على ما تقدم تظهر لنا عظمة الرسالة الخاتمة التي تبنت الدعوة إلى الحياة الحقيقية ونادت الإنسان للإلتحاق بها، وقد قلنا في مستهل هذا البحث أن هذا النداء الإلهي يعتبر من غرر نداءات القرآن ويؤسس لقاعدة قرآنية شاملة تقرر أن الذي يستجيب لله سوف يخرج من الموت إلى الحياة، وبتعبير قرآني آخر يخرج من الظلمات إلى النور.. أي ظلمات الموت والجهل إلى نور الحياة الإلهية والعلم والكمال والسعادة الحقيقية.. واستناداً إلى هذا المعنى العميق في حقيقة الحياة يمكن القول إن الرسول الأكرم ﷺ هو المحيي الحقيقي للموتى.. لأنه برسالته الخاتمة يخرج الناس من الموت الحقيقي وهو الانقطاع عن الله سبحانه

---

١ - الميزان في تفسير القرآن: ج١٢، ص٣٤١-٣٤٢.

إلى الحياة الحقيقية التي هي الاتصال بالله مصدر الحياة والنور والكمال المطلق، وبالمقارنة بين هذا الإحياء وبين إحياء عيسى عليه السلام للموتى -كما ينص القرآن على ذلك- نجد أن عيسى عليه السلام يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله بمعنى أنه يعيد الحياة للبدن الذي فارقته الروح ويمنح الشفاء للبدن المصاب بالبرص مثلاً.. وهذا الإحياء متعلق بهذا المستوى من وجود الإنسان أي نستطيع القول إنه إحياء نسبي من موت نسبي – وهو معجزة أكيداً- لكن الإحياء الذي تتكلم عنه الرسالة الخاتمة في قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ هو إحياء حقيقي من موت حقيقي لا محالة وهذه هي المعجزة الأكبر لأن دعوته المباركة المهيمنة على جميع الرسالات السماوية تدعونا إلى هذا النوع الأرقى والأكمل من الحياة وهو الاتصال بالحي الحقيقي المطلق.. وهي كذلك تشفينا من المرض الحقيقي وليس البدني لأن المرض الحقيقي الأكبر الذي يفتك بوجود الإنسان هو الابتعاد والانقطاع عن الله سبحانه وتعالى وهلاكه في ظلمات الشرك والكفر والمعصية والذنب.. ومن الجدير بالذكر هنا أننا لا

نقصد من هذه المقارنة نسبة شيء سلبي إلى نبـي الله عيسـىعليه السلام، كلا، بل المقصود هو المقارنة بين الحياة الحقيقية والمـوت الحقيقـي من جهة وبين الحياة البدنية والمـوت البـدني مـن جهـة أخـرى.. حيث كان عيسىعليه السلام يمسـح بيـده المباركـة عـلى بـدن المصـاب بالبرص مثلاً فيشفى بـإذن الله.. في حـين أن الأمـراض المعنويـة والروحية أشد فتكاً بالإنسان من الأمراض البدنية كما هو ثابـت في علم الأخلاق والتربية، وعليه فالذي يشافي الإنسان من هـذه الأمراض ويوصله إلى دائـرة الكـمال والسـعادة الحقيقيـة يكـون أعظم من الذي يشافيه من أمراضه البدنية.

● القرآن كتاب يدعو إلى الحياة

في ضوء الفقرة السابقة من البحث يمكن القـول إن القـرآن الكريم في حقيقته كتاب يدعو إلى الحياة الحقيقيـة، وعليـه فلـيس هناك طريق لإثبات ثقافة الموت والـدعوة إلى المـوت في القـرآن، لأن ذلك ينافي الأهداف العليـا للقـرآن وهـو الـدعوة إلى الحيـاة

الحقيقية، نعم، أوضح القرآن في بعض آياته أن بعض أنواع الموت التي نحسبها موتاً هي ليست موتاً في الحقيقة بل هي موت جسدي الذي هو انفصال الروح عن البدن، وهو انتقال من حياة إلى حياة أخرى، وأوضح في قبال ذلك أيضاً بعض مصاديق الحياة التي نحسبها حياة حقيقية وهي الحياة الدنيا، فإنها إذا نسبت إلى الحياة الإلهية الخالدة الحقيقية التي لا فناء ولا نقص يعتريها سوف لا نعتبرها حياة بالمعنى الحقيقي والدقيق للحياة.

إذن، فهناك موت ينهى عنه القرآن وحياة يدعو إليها القرآن، ونقصد بالموت هو الموت الحقيقي وهو الابتعاد عن الله سبحانه والانقطاع عن مصدر النور والكمال، والحياة هي الحياة الإلهية، وبذلك تكون الدعوة الإلهية في القرآن متمحّضة وخالصة باتجاه الحياة فقط، ولندقق في التعبير القرآني عندما يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ نجد أن الهدف الأعلى هو الدعوة إلى الحياة وليس دعوة إلى الموت، ودعوة الحياة تترتب عليها جميع لوازم الحياة

الحقيقية، فنرى القرآن يعظّم أهل العلم ويرفع من شأن العلماء ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [1] لأن العلم أثر مهم من آثار الحياة، لا يمكن لأي مخلوق أن يكون عالماً إلا أن يكون قبل ذلك حياً.. ومن هنا أيضاً يكون الجهل أثراً من آثار الموت الحقيقي، ولذلك نجد القرآن يقف ضد الجهل ويدعو للعلم، لأن القرآن كتاب حياة وليس كتاب موت، وأي شيء يدعو إلى الموت الحقيقي نجد أن القرآن الكريم يقف بالضد منه، وهكذا آثار الحياة الأخرى كالأخلاق والقيم العليا والمبادئ الحقة، إذ لا يمكن أن نجد عالَمَ أخلاقي لا توجد فيه حياة، لأن أحد تجليات الحياة هو الأخلاق الفاضلة وقيم الجمال والمعرفة، وعليه فإن وجدنا اتجاهاً يدعو إلى الدمار والجهل والقتل ومحاربة الأشياء ذات الجمال الحقيقي في هذا العالم فإن هذا الاتجاه لا يمثل الدين ولا يمثل القرآن لأن القرآن يدعو إلى الحياة ويدعو إلى كل ما

١ – فاطر: ٢٨.

يترتب عليها من لوازمها وآثارها الحقيقية، فهو كتاب الحياة والعلم والمعرفة والأخلاق والحقيقة والقيم العليا، بل نستطيع القول أن كل الرسالات السماوية هي رسالات حياة.. وجميع الأنبياء والمرسلين هم دعاة حياة.. وأن الإنسان خلق ليبقى حياً لا أنه خلق لكي يموت، لأن الله سبحانه يقول: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾[1]، ولا بد أن تبقى هذه النفخة الإلهية تملأ كيان الإنسان بجميع مستوياته العقلية والقلبية والروحية والنفسية والاجتماعية والدينية والدنيوية والأخروية!

في ضوء ذلك نفهم المعنى العميق لقوله تعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**﴾[2] فإن قتل النفس بغير حق أو فساد في الأرض هو قتل للحياة فيكون

---

١ - الحجر: ٢٩.

٢ - المائدة: ٣٢.

معنى ذلك أنه قتل الناس جميعاً، لأنه بالحقيقة قتل مبدأ الحياة عند الناس، فقتل شخص واحد يعادل عند الله سبحانه قتل الناس جميعاً، وفي قبال ذلك فإن من أحياها فقد أحيا الناس جميعاً، لأنه يحي مبدأ الحياة، ونفهم من ذلك أن القيمة الكبرى والعليا إنما هي للحياة، إلى درجة أن من يتجرأ ويزيل حياة إنسان بغير حق فكأنما أزال حياة الناس جميعاً!! والذي يحيي نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً! ومن المعلوم أن الحياة لها عدة مستويات، فهناك الحياة على مستوى البدن، وهناك الحياة على المستوى الروحي والمعنوي، وهذه الآية الكريمة جارية في كلا المستويين، فمن يحيي نفساً معنوياً بالدعوة الإلهية كأنما أحيا الناس جميعاً.. ومن يحيي نفساً من المرض والهلاك –كالطبيب– فكأنما أحيا الناس جميعاً..

إننا نعلم أن للحيوان حياة، وللنبات حياة، وللجماد حياة حسب ما ينص عليه القرآن من أن جميع الكائنات مسبحة لله عز وجل، والتسبيح لا يصدر إلا عن حي، والإنسان أيضاً له حياة

لكن من الواضح أن حياة الإنسان تعتبر أرقى وأكمل نوع من أنواع الحياة الحيوانية والنباتية والجمادية، لأن الآثار والكمالات والإدراكات الموجودة في النفس الإنسانية أرقى من جميع الكمالات الموجودة في المخلوقات الأخرى، والسبب الرئيسي في هذا الترقّي والأكملية هو أن الإنسان خليفة الله سبحانه، والله حيّ ومحيي، فلا بد أن يكون الإنسان كذلك.. ولا عجب في ذلك، فإن القرآن الكريم كما ذكرنا ينسب الإحياء إلى عيسى عليه السلام عندما يقول أنه يحيي الموتى! وكذلك عندما يقول: من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، فإن فاعل (أحيا) هو الإنسان فيكون محيياً، وحيث أن الله سبحانه هو الخالق والمحيي لهذا العالم، وهو الذي سرت حياته في جميع أركان الوجود.. فلا بد للإنسان الخليفة أن يكون كذلك وهو أحد المعاني العميقة لخلافة الإنسان لله سبحانه.. أي الإنسانية بمعناها التكويني والوجودي.. فيكون دور الإنسان إحياء هذا العالم. ويكون مثله مثل الماء الذي تحيا به الكائنات جميعاً.. وليس العكس بأن يكون هو سبب

الدمار والموت والخراب لهذا الكون! كما هو حاصل مع الأسف وحسب تعبير القرآن: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[1] .. إن الإنسان حسب تعبير أهل المعرفة الإلهية هو روح هذا الكون وسرّ وجوده والمركز الذي تدور عليه رحى عالم الإمكان.. ولا يمكن أن يصدر الموت والهلاك والخراب من الحي الحقيقي.. فالإنسان الحي بالحياة الإلهية هو ماء هذا الكون وسرّ وجوده، وهذا هو معنى الخلافة الإلهية الحقيقية التي يكون مقتضاها: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾!

بناء على ذلك لنكن دعاة حياة لا دعاة موت.. ندعو الناس أجمعين للحياة الإلهية التي يصفها القرآن بـ (الطيبة) أي التي لا خبث ولا فساد فيها، كما نقول: بلد طيب، وصعيد طيب، وأرض طيبة، أي ينبغي علينا أن نعرض الدين للناس على أنه حياة لا موت، وعندما يدرك المخاطب طعم وحقيقة الحياة

---

١ - الروم: ٤١.

الحقيقية سيقوم هو بالبحث عنها.. والدفاع عنها.. ليس من الصحيح لنا –كدعاة دين– أن نرسم في نفس الآخرين صورة الموت والهلاك والخراب.. فالقرآن يقرر: إذا دعاكم لما يحييكم وليس إلى ما يميتكم!! وحتى الناس الذين ندعوهم إلى الإيمان والإسلام إنما نمد لهم يد الحياة لا يد الموت لأن الكفر والشرك والضلالة تمثل موتاً حقيقياً للإنسان.. ومن هنا جاء التشديد على حرمة الدم والقتل وإزهاق الأرواح على لسان الآيات الكريمة والروايات المعتبرة، فالوقوف ضد القتل وإراقة الدماء هو مقصد أعلى للقرآن الكريم.. وإن الاعتداء على حرمة الإنسان هو اعتداء على حرمة الله سبحانه[١].

---

١ - للتوسع في هذا الموضوع يراجع تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ البقرة:١٧٩، تفسير الميزان للسيد الطباطبائي قدس سره، ج١، ص٤٥٣، حيث يتصدى المصنف قدس سره لرد الإشكالات الواردة في موضوع القصاص، وأن قتل=

ومن هنا يقول أهل المعرفة بالله سبحانه أن هذه النشأة الإنسانية روحاً وجسماً ونفساً خلقها الله على صورته، كما ورد عن محمد بن مسلم قال: (**سألت أبا جعفر عما يروون أن الله خلق آدم على صورته، فقال: هي صورة محدثة مخلوقة، واصطفاها الله واختارها على سائر الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه، والروح إلى نفسه، فقال: بيتي، ونفخت فيه من روحي**)[١].

وما دامت النشأة الإنسانية مخلوقة على صورة الله سبحانه فلا يجوز أن يتولى حلّ نظامها إلا الله، فإن قبض الأرواح والأنفس على اختلاف ضروبها من قبضها بتوسط ملك الموت أو بالقتل والهدم وغير ذلك فإن الأمر يرجع في كل ذلك إليه

=الجاني القاتل لا ينافي المقصد الأعلى للقرآن وهو الحفاظ على الحياة، لأن القصاص من الجاني هو الذي يحفظ حياة المجتمع الإنساني، فراجع.

١ - الكافي: ج١، ص١٠٤.

سبحانه، وعليه فمن تولى حلها –أي قتلها– بغير أمر الله فقد ظلم نفسه لأنه هدم صورة الله في الحقيقة، وتعدى على حدّ الله وسعى في خراب ما أمره الله تعالى بعمارته.. ويشهد على ذلك أيضاً أن الله سبحانه قد فرض الجزية والصلح في حق أعداء الدين لكي يحافظ على بقائهم وقال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]، وقال تعالى في موضوع القصاص: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2])[3].

١ – الأنفال: ٦١.

٢ – الشورى: ٤٠.

٣ – ينظر شرح فصوص الحكم، داود القيصري، تحقيق الشيخ حسن زاده الآملي، ج٢، ص١٠٧٧ وما بعدها.

● إن الله يحول بين المرء وقلبه

من الأبحاث المهمة المتعلقة بنداء الحياة هو ما نطلق عليه بحث (الحيلولة الإلهية) المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1] وهو التعبير الذي ختم به قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2] ومن المؤكد أن هناك علاقة دلالية ومضمونية بين صدر الآية الكريمة وذيلها.

ويعدّ بحث الحيلولة الإلهية من الأبحاث المهمة قرآنياً وتكوينياً، لأن الحيلولة المذكورة ليست هي حيلولة الله بين المرء وقلبه فقط، بل إن الله سبحانه يحول بين المرء وسمعه، ويحول بين المرء وبصره، ويحول بين المرء وبين جميع جهات وجوده، لأن الله

---

١ - الأنفال: ٢٤.

٢ - الأنفال: ٢٤.

سبحانه عندما خلق الإنسان خلقه مركباً من أجزاء بدنية وروحية أو معنوية، كاليد والرجل والرأس والقلب والعقل وغيرها، وحيث أن الله سبحانه محيط بكل شيء كما يقتضي ذلك إطلاق وجوده وأسمائه الحسنى فإنه بكل شيء محيط فهو سبحانه محيط بالإنسان إحاطة قيومية كاملة، أي أنه سبحانه محيط بكل جزء من أجزاء الإنسان سواء كان جزءاً معنوياً وباطنياً كالقلب والعقل أو مادياً كأجزاء البدن الأخرى، وأما ذكر القلب بالخصوص في قوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فسببه العلاقة الدلالية بينه وبين ما تقدم من قوله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ باعتبار أن القلب هو مركز الإدراك المعنوي والمشاعر والأحاسيس كالحب والبغض والرضا والغضب.. بل القلب هو مركز المعرفة المعنوية والنفسية بالله سبحانه وتعالى، والحيلولة تعني التخلل في الوسط لغوياً، فعندما يتخلل شيء بين شيئين فإنه قد حال بينهما، بمعنى أن الله سبحانه يتخلل بين الإنسان وقلبه، وإذا كان الأمر كذلك فلا

عذر للإنسان في عدم استجابة النداء الإلهي ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ لأن الله سبحانه قريب للإنسان بهذه الدرجة من القرب وهي الحيلولة بينه وبين مركز المعرفة والإدراك عنده وهو القلب! ومن هنا أيضاً يتضح لنا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[١] أي قريب بهذا المستوى الدقيق والمعمق في وجود الإنسان، ويؤكد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٢].

إذن فأجزاء الإنسان المعنوية والمادية بالنظر إلى الإحاطة الإلهية بها كأن لها وجودات مستقلة ولكل جزء منها علاقة خاصة بالله سبحانه غير علاقة المجموع المركب، فالقلب له علاقة خاصة بالله، وهكذا العقل، واليد، والرأس، والرجل وكل الأجزاء الأخرى، ومن نتائج هذه العلاقة الخاصة بالله

---

١ - البقرة: ١٨٦.

٢ - ق: ١٦.

سبحانه يقرر القرآن الكريم أن هذه الأجزاء ستشهد على الإنسان يوم القيامة! وهذا يعني أن لها وجوداً خاصاً مرتبطاً بالله عز وجل سوف يظهر للإنسان ساعة الحساب وإن كان ذلك خافياً عليه في نشأة الدنيا، فتشهد عليهم جلودهم وأيديهم وأرجلهم! وتقول: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء!

إذن، لا عذر للإنسان أمام الله بعدم الاستجابة لندائه لأن الله يحول بين المرء وقلبه، ولا يمكن للإنسان أن ينكر ما يراه قلبه وجداناً لأن مدركات القلب حاضرة عند النفس بالعلم الحضوري، والله يحول بين المرء وقلبه، أي أنه سبحانه أقرب إلى الإنسان حتى من قلبه! لأن الحائل بين شيئين يكون أقرب إليهما من بعضهما كما هو معلوم، وبناء على ذلك فإن بحث الحيلولة سوف يقطع حتى عذر الكافر والمنافق لأن الله سبحانه أقرب إلينا من أنفسنا فكيف يشك الإنسان بذلك ويكون كافراً أو منافقاً؟!

يقول السيد الطباطبائي قدس سره: (وأما اتصال الكلام أعني

ارتباط قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ بقوله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ فلأن حيلولته سبحانه بين المرء وقلبه، يقطع منبت كل عذر في عدم استجابته لله و الرسول إذا دعاه لما يحييه، وهو التوحيد الذي هو حقيقة الدعوة الحقة، فإن الله سبحانه لما كان أقرب إليه من كل شيء حتى من قلبه الذي يعرفه بوجدانه قبل كل شيء، فهو تعالى وحده لا شريك له أعرف إليه من قلبه الذي هو وسيلة إدراكه وسبب أصل معرفته و علمه.

فهو يعرف الله إلهاً واحداً لا شريك له قبل معرفته قلبه وكل ما يعرفه بقلبه، فمهما شك في شيء أو ارتاب في أمر فلن يشك في إلهه الواحد الذي هو ربُّ كل شيء و لن يضل في تشخيص هذه الكلمة الحقة.

فإذا دعاه داعي الحق إلى كلمة الحق ودين التوحيد الذي يحييه لو استجاب له، كان عليه أن يستجيب إلى داعي الله، فإنه لا عذر له في ترك الإستجابة معللاً بأنه لم يعرف حقيقة ما دعي

إليه، أو اختلط عليـه، أو أعيتـه المـذاهب في الإقبـال عـلى الحـق الصريح، فإن الله سبحانه هـو الحـق الصـريح الـذي لا يحجبـه حاجب، و لا يستره ساتر، إذ كل حجاب مفروض فالله سـبحانه أقرب منه إلى الإنسان، و كل مـا يختلج في القلـب مـن شـبهة أو وسوسة فالله سبحانه متوسـط متخلـل بينـه وبـين الإنسـان فـلا سبيل للإنسان إلى الجهل بالله والشك في توحده.

فعلى الإنسان إذا دعاه داعي الحق إلى ما يحييه من الحق أن يستجيب دعاءه بقلبه كما يستجيبه بلسانه، و لا يضمر في قلبه ما لا يوافق ما لبّاهُ بلسانه وهو النفاق، فإن الله أعلم بما في قلبه منه وسيحشر إليه فينبئه بحقيقة عمله ويخبره بما طواه في قلبه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾[1].

و أيضاً فإن الله سبحانه لما كان هو الحائل بين الإنسان وقلبه وهو المالك للقلب بحقيقة معنى الملك كان هو المتصرف في

---

١ - غافر: ١٦.

القلب قبل الإنسان، وله أن يتصرف فيه بما شاء، فما يجده الإنسان في قلبه من إيمان أو شك أو خوف أو رجاء أو طمأنينة أو قلق واضطراب أو غير ذلك مما ينسب إليه باختيار أو اضطرار، فله انتساب إليه تعالى بتصرفه فيما هو أقرب إليه من كل شيء تصرفاً بالتوفيق أو الخذلان أو أي نوع من أنواع التربية الإلهية، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾[1].

فمن الجهل أن يثق الإنسان بما يجد في قلبه من الإيمان بالحق أو التلبُّس بنيّة حسنة أو عزيمة على خير أو همّ بصلاح وتقوى، بمعنى أن يرى استقلاله بملك قلبه وقدرته المطلقة على ما يهمّ به، فإن القلب بين أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء وهو المالك له بحقيقة معنى الملك والمحيط به بتمام معنى الكلمة، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[2].

---

١ - الرعد: ٤١.

٢ - الأنعام: ١١٠.

وكذلك الإنسان إذا وجد قلبه غير مقبل على كلمة الحق والعزم على الخير وصالح العمل، عليه أن يبادر إلى استجابة الله ورسوله فيما يدعوه إلى ما يحييه، ولا ينهزم عما يهجم عليه من أسباب اليأس وعوامل القنوط من ناحية قلبه، فإن الله سبحانه يحول بين المرء وقلبه، وهو القادر على أن يصلح سرّه و يحول قلبه إلى أحسن حال ويشمله بروح منه ورحمة فإنما الأمر إليه، وقد قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

فالآية الكريمة -كما ترى- من أجمع الآيات القرآنية تشتمل على معرفة حقيقية من المعارف الإلهية - مسألة الحيلولة - وهي تقطع عذر المتجاهلين في معرفة الله سبحانه من الكفار والمشركين، و تقلع غرة النفاق من أصلها بتوجيه نفوس المنافقين إلى مقام ربهم وأنه أعلم بما في قلوبهم منهم، ويلقي إلى المسلمين والذين هم في طريق الإيمان بالله وآياته مسألة نفسية تعلمهم أنهم

١ - يوسف: ٨٧.

غير مستقلين في ملك قلوبهم ولا منقطعون في ذلك عن ربهم فتزول بذلك رذيلة الكبر عمن يرى لنفسه استقلالاً وسلطنة فيما يملكه فلا يغره ما يشاهده من تقوى القلب وإيمان السر، ورذيلة اليأس والقنوط عمن يحيط بقلبه دواهي الهوى ودواعي أعراض الدنيا فيتثاقل عن الإيمان بالحق والإقبال على الخير، ويورثه ذلك اليأس والقنوط)[1].

١ - الميزان في تفسير القرآن: ج٩، ص٤٨-٥٠.

الفهرس